فيصل التفرقة

بين الإسلام والزندقة

للإمام حجة الإسلام

أبي حامد الغزالي

الناشـــر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٣٦٢٧٧

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر ت: ٥٩٢٣٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

رقم الايداع	٢٠٠٣/١٣٦٤٠
I.S.B.N الترقيم الدولي	977 - 341 - 106 - 0

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الامام العالم العامل أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى رحمة الله عليه:

أحمد الله تعالى استسلامًا لعزته، واستتمامًا لنعمته، واستغنامًا لتوفيقه ومعونته وطاعته، واستعصامًا من خذلانه ومعصيته، واستدرارًا لسوابغ نعمته.

وأصلى على محمد عبده ورسوله وخير خليقته، انقيادًا لنبوته، واستجلابًا لشفاعته، وقضاءً لحق رسالته، واعتصامًا بيمن سريرته ونقيته، وعلى آله واصحابه وعترته، اما بعد:

فانى رأيتك ايها الاخ المشفق والصديق المتعصب موغر الصدر، منقسم الفكر، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى اسرار معاملات الدين، وزعمهم ان فيها ما يخالف مذهب الاصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وان العدول عن مذهب الاشعرى[1] ولو فى قيد شبر كفر، ومباينته ولو فى شىء نزر ضلالٌ وخسر،

(١) هو ابو الحسن الاشعرى البصرى، شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، امام المتكلمين وناصر سنة سيد المرسلين، والذاب عن الدين والساعى فى حفظ عقائد المسلمين، سعيًا يبقى اثره إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، امام الخير وتقى، حمى جناب الشرع من الحديث المفترى وقام فى نصرة ملة الاسلام فنصرها نصراً مؤزراً.

بهمة فى الثريا اثر اخمصها
وعزمة ليس من عاداتها السأم

إليه تنسب الطائفة الاشعرية، وشهرته تغنى عن الاطالة فى تعريفه، والقاضى ابو بكر الباقلانى ناصر مذهبه ومؤيد اعتقاده، كان مولد ابى الحسن بالبصرة سنة ستين =

فهوّن ايهـا الأخ المشفق المتعصب على نفسك، لا تضيق به صدرك، وقُلَّ من غربك قليلا، واصبر على ما يقولون واهجرهم هـجراً جميلا، واستحقر

= ومائتين، وقيل سـبعين ومائتين اخذ علم الكلام أولاً عن أبى على الجـبائى، احد ائمة الاعتزال، وتبعه فى الاعتزال، ويقال اقام على الاعـتزال اربعين سنة حتى صار للمعتزلة اماماً، فلما اراده الله لنصر دينه وشرح صدره لاتباع الحق غاب عن الناس فى بيته خمسة عشر يومًا ثم خـرج إلى الجامع وصعد المنبر، وقال: معاشـر الناس انما تغيبت عنكم هذه المـدة لانى نظرت فتـعارضت عندى الادلة، ولم يتـرجع عندى شىء، على شىء فاستهديت الله تعالى فهدانى الى اعتقاد ما أودعته فى كتبى هذه، وانخلعت من جميع ما كنت اعتـقده كمـا انخلعت من ثوبى هذا، وتخلع من ثوب كان عـليه ورمى به، ودفع الكتب التى ألفها على مذاهب اهل السنة إلى الناس، وكان شـافعى المذهب، تفقه على أبى اسحاق المروزى، نص على ذلك الاستاذ ابو بكر بن فورك فى طبقات المتكلمين، والاستـاذ ابو اسحاق الاسـفراينى فـيما نقل عـنه الشيخ ابو محـمد الجـوينى فى شرح الرسالة، وكانت وفـاته بين العشرين والثلاثين بعد الثلاثمـائة، والاقرب انها سنة اربع وعشرين، وهو مـا صححه ابن عساكر، ويقـال: سنة نيف وثلاثين، وقيل سنة ثلاثين فـجأة، حكاه ابـن الهمـذانى فى ذيل تاريخ الطبـرى ببـغـداد، ودفن بين الكرخ وباب البصرة، رحمه الله.

وله من الكتب كتاب اللمع، وكتـاب المؤجر، وكتاب ايضاح البرهان، وكتـاب التبيين عن اصول الدين، وكتاب الشرح والتفصيل فى الرد على أهل الإفك والتضليل، وكتب اخرى فى الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرفضة والجهمية والخوارج، وسائر اصناف المبتدعين.

ودفن فى مشرع الزوايا فى تربة الى جانبها مـسجد، وبالقرب منه حمام، وهو عن يسار المار من السوق إلى دجلة.

والأشعرى بفتح الهـمزة وسكون الشين المعجمة وفتح العـين المهملة وبعدها راء، هذه النسبة إلى أشعر، واسمه نبت بن ادد بن زيـد بن يشجب، وانما قيل له اشعر لان أمه ولدته والشعر على بدنه، هكذا قاله السـمعانى. اهـ. باختصار طبقات الشـافعية الكبرى لتاج الدين بالسبكى وابن خلكان.

من لا يُحْسَد ولا يُقذف، واستصغر من بالكفر او الضلال لا يُعْرَف، فأيُّ داع اكمل واعقل من سيد المرسلين، ﷺ، وقد قالوا انه مجنون من المجانين، وأيُّ كلام اجلُّ واصدق من كلام رب العالمين، وقد قالوا انه اساطير الاولين، واياك ان تشتغل بخصامهم، وتطمع في افحامهم، فتطمع في غير مطمع، وتصوت في غير مسمع، أما سمعت ما قيل:

كلُّ العداوة قد تُرْجى سلامتها

الا عداوةَ مَن عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لاحد من الناس، لما تلى على اجلّهم رتبة آيات اليأس، أوما سمعت قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

واعلم ان حقيقة الكفر والايمان وحدَّهما، والحق والضلال وسرهما، لا ينجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل انما ينكشف دون ذلك لقلوب طهرت عن وسخ اوضار الدنيا، اولا ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانيًا، ثم نورت بالذكر الصافي ثالثًا، ثم عذبت بالفكر الصائب

رابعًا ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامسًا، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة، وصارت كأنها مرآة مجلوة، وصار مصباح الايمان فى زجاجة قلبه مشرق الانوار، يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار، وأنى تتجلى اسرار الملكوت لقوم إلهم هواهم، ومعبودهم سلاطينهم، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم، وشريعتهم رعونتهم، وارادتهم جاهم وشهواتهم، وعبادتهم خدمتهم اغنياءهم، وذكرهم وساوسهم، وكنزهم سواسهم، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم، فهؤلاء من اين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الايمان، أبالهام إلهىّ، ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها، ام بكمال علمى، وانما بضاعتهم فى العالم مسألة النجاسة وماء الزعفران وامثالهما؟ هيهات هيهات هذا المطلب انفس واعز من ان يُدرك بالمنى، او يُنال بالهوينا، فاشتغل انت بشأنك، ولا تضيع فيهم بقية زمانك ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

فصل

فأما انت ان اردت ان تنتزع هذه الحسكة من صدرك، وصدر من هو فى حالك، ممن لا تحركه غواية الحسود، ولا تقيده عماية التقليد، بل تعطشه إلى الاستبصار لحزازة اشكال اثارها فكر وهيجها نظر، فخاطب نفسك وطالبه بحد الكفر.

فان زعم ان حدّ الكفر ما يخالف مذهب الاشعرى او مذهب المعتزلى[1]

(١) هو ابو حذيفة واصل بن عطاء، امام المعتزلة المعروف بالغزال، مولى بنى ضبة، وقيل مولى بنى مخدوم، والمعتزلى والمعتزلة نسبه إليه، كان أحد الائمة البلغاء المتكلمين فى علوم الكلام وغيره، وسبب تسميته واياهم بالاعتزال هو ما ذكره السمعانى فى كتاب الانساب فى ترجمة المعتزلى قال: ان واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصرى رضي الله عنه، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر، وقالت الجماعة بانهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر، خرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر، منزلة بين منزلتين، فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه، وجلس إليه عمرو بن عبيد المتكلم المشهور فقيل لهما ولاتباعهما معتزلون، وقيل دخل قتادة الاكمه مسجد البصرة فاذا بعمرو بن عبيد ونفر معه قد اعتزلوا من حلقة الحسن البصرى وحلقوا وارتفعت اصواتهم فامهم، وهو بظن انها حلقة الحسن، فلما صار معهم عرفها انها ليست هى فقال انما هؤلاء المعتزلة، ثم قام عنهم، فمذ يومئذ سموا المعتزلة.

ولواصل من التصانيف كتاب اصناف المرجئة، وكتاب فى التوبة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب خطبته التى اخرج منها الراء، وكتاب معانى القرآن، وكتاب الخطيب فى التوحيد والعدل، وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد، وكتاب السبيل إلى معرفة الحق، وكتاب طبقات اهل العلم والجهل، وغير ذلك، واخباره كثيرة.

وكانت ولادته سنة ثمانين للهجرة بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتوفى سنة احدى وثمانين ومائة. اهـ. باختصار. خلكان.

أو مذهب الحنبلي[١] أو غيرهم فاعلم انه غِرٌّ بليد، قد قيده التقليد، فهو أعمى من العميان، فلا تضيع باصلاحه الزمان، وناهيك حجة في افحامه، مقابلة دعواه بدعوى خصومه، اذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقًا وفصلا. ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعريّ، ويزعم ان مخالفته في كل ورد وصدر كفر من الكفر الجليّ، فاسأله من اين ثبت له ان كون الحق وقفًا عليه حتى قضى بكفر الباقلانى[٢]

---

(١) نسبة إلى امام المذهب، وهو الامام ابو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل بن هلال، وينتهى نسبه لمعد بن عدنان، الشيبانى المروزى الاصل، خرجت امه من مرو وهى حامل به فولدته في بغداد في شهر ربيع الأول سنة اربع وستين ومائة، وقيل: انه ولد بمرو وحمل الى بغداد وهو رضيع، وكان امام المحدثين.

صنف كتابه المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره، وقيل: انه كان يحفظ ألف ألف حديث، وكان من أصحاب الامام الشافعى وخواصه ﷺ، ولم يزل مصاحبه إلى ان ارتحل الشافعى إلى مصر، وقال فى حقه: خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا افقه من ابن حنبل.

ودعى الى القول بخلق القرآن فلم يُجب، فضُرب وحُبس وهو مُصِرٌّ على الامتناع، وكان ضربه فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين.

اخذ عنه الحديث جماعة من الاماثل، منهم: محمد بن إسماعيل البخارى، ومسلم بن الحجاج النيسابورى، ولم يكن فى آخر عصره مثله فى العلم والورع.

توفى ضحوة نهار الجمعة لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة احدى واربعين ومائتين ببغداد، ودفن بمقبرة باب حرب، وقبره بها يزار، وحضر من حضر جنازته من الرجال فكانوا ثمانماية ألف، ومن النساء ستين ألفًا، رحمه الله تعالى. اهـ. باختصار. خلكان.

(٢) هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقلانى، البصرى المتكلم، كان على مذهب الشيخ ابى الحسن الأشعرى ومؤيداً اعتقاده وناصراً طريقته، سكن بغداد، وصنف التصانيف الكثيرة فى علم الكلام وغيره =

اذ خالفه فى صفة البقاء لله تعالى وزعم انه ليس هو وصفًا لله تعالى زائداً على الذات ولِمَ صار الباقلانى اولى بالكفر بمخالفته الاشعرىَّ من الاشعرى بمخالفته الباقلان، ولم صار الحق وقفًا على احدهما دون الثانى؟ أكان ذلك لاجل السبق فى الزمان؟.

فقد سبق الاشعرىَّ غيرُه من المعتزلة، فليكن الحق للسابق عليه! ام لاجل التفاوت فى الفضل والعلم؟ فبأىّ ميزان ومكيال قدر درجات الفضل حتى لاح له أن لا افضل فى الوجود من متبوعه ومقلده؟ فان رخص للباقلانى فى مخالفته فلم حجر على غيره؟ وما الفرق بين الباقلانى والكرابيسى[1]

= وكان فى علمه اوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة فى مذهبه، وكان موصوفًا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، وسمع الحديث، وكان كثير التطويل فى المناظرة مشهوراً بذلك عند الجماعة.

توفى، رحمه الله، آخر يوم السبت ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة سنة ثلاثين واربعمائة ببغداد، ورثاه بعض شعراء عصره بقوله:

انظر إلى جبل تمشى الرجال به
وانظر إلى القبر بما يحوى من بالصلف
وانظر إلى صار الاسلام مغتمداً
وانظر إلى درة الاسلام فى الصدف

وصلى عليه ابنه الحسن، ودفنه فى داره بدرب المجوس، ثم نقل بعد ذلك فدفن فى مقبرة باب حرب.

والباقلانى نسبة إلى الباقلى. اهـ. باختصار. خلكان.

(١) هو ابو على الحسين بن على بن يزيد الكرابيسى البغدادى، صاحب الامام الشافعى ﷺ واشهرهم بانتياب مجلسه، واحفظهم لمذهبه، وله تصانيف كثيرة فى اصول الفقه وفروعه، وكان متكلمًا عارفًا بالحديث، وصنف أيضًا فى الجرح والتعديل وغيره، وأخذ عنه الفقه خلق كثير. =

والقلانسى[١] وغيرهم؟ ما مدرك التخصيص بهذه الرخصة؟ وان زعم ان خلاف الباقلانى يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه كما تعسف بتكلفه بعضُ المتعصبين زاعمًا انهما جميعًا متوافقان على دوام الوجود والخلاف فى أن ذلك يرجع إلى الذات أو الى وصف زائد عليه، خلاف قريب لا يوجب التشديد، فما باله يشدد القول على المعتزلى فى نفيه الصفات وهو معترف

= توفى سنة خمسة، وقيل: ثمان وأربعين ومائتين، وهو شبه بالصواب.
والكرابيسى نسبة إلى الكرابيس، وهى الثياب الغليظة، واحدها كِرباس، بكسر الكاف، وهو لفظ فارسى عُرِّب، وكان يبيعها فنسب اليها. اهـ. باختصار. خلكان.

(١) هو ابو العباس، قال العلامة السجستانى فى الملل والنحل: اما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا تهدفوا للتشبيه فمنهم مالك بن أنس واحمد بن حنبل وسفيان وداود الأصفهانى ومن تابعهم، حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكلابى وابى العباس القلانسى، والحارث ابن سد المحاسبى، وهؤلاء كانوا من جملة السلف الا انهم باشروا علم الكلام وايدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين اصولية، وقال العلامة حسن صديق خان فى كتابه خبثة الاكوان عند قوله على علماء الكلام ما نصه:
ومما يناضل المعتزلة فى قدم الكلام على قول ظاهر عبد الله بن سعيد الكلابى وابو العباس القلانسى والحارث المحاسبى وكانوا اشبههم اتقانًا وامتنهم كلامًا.
وقد راجعت طبقات الشافعية الكبرى والوسطى والصغرى للسبكى وطبقات الحزامى وطبقات الحنفية وتاج التراجم وطبقات المالكية لابن فرحون واللباب فى الانساب لابن الاثير ولب اللباب للسيوطى ومعجم البلدان لياقوت الحموى والمسالك لابن خردازبه ولسان العرب والقاموس وشرحه وكثير من التواريخ فلم اقف على ترجمته، وذكر ابن الفلاح صاحب شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ترجمة ابن بندار القلانسى مقرى العراق، المتوفى سنة احدى وعشرين وخمسمائة، وأيضًا ترجمة العميد ابن القلانسى صاحب تاريخ دمشق. انتهى به إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وتوفى بها فى ربيع الاول عن بضع وثمانين سنة، وذكر فى تاج العروس ترجمة القلانسى المحدث والقلانسى الفقيه، وكلاهما من المتأخرين، والجميع لم يعرفوا بعلم الكلام مع تأخرهم عن الامام الغزالى. اهـ.

بان الله تعالى عالم محيط بجميع المعلومات قادر على جميع الممكنات، وانما يخالف الاشعرى فى انه عالم وقادر بالذات او بصفة زائدة، فما الفرق بين الخلافين وأى مطلب اجل وأخطر من صفات الحق سبحانه وتعالى فى النظر فى نفيها واثباتها.

فان قال انما اكفر المعتزلى لانه يزعم ان الذات الواحدة تصدر منها فائدة العلم والقدرة والحياة وهذه صفات مختلفة بالحد والحقيقة والحقائق المختلفة تستحيل ان توصف بالاتحاد او تقوم مقامها الذاتُ الواحدة، فما باله لا يستبعد من الاشعرى قوله ان الكلام صفة زائدة قائمة بذات الله تعالى، ومع كونه واحد هو توراة وانجيل وزبور وقرآن وهو امر ونهى وخبر واستخبار، وهذه حقائق مختلفة وكيف لا وحدُّ الخبر ما يتطرق اليه التصديق والتكذيب ولا يتطرق ذلك إلى الامر والنهى فكيف تكون حقيقة واحدة يتطرق إليها التصديق والتكذيب ولا يتطرق فيجتمع النفى والاثبات على شىء واحد فان تخبط فى جواب هذا او عجز عن كشف الغطاء فيه فاعلم انه ليس من اهل النظر وانما هو مقلد وشرط المقلد ان يَسكت ويُسكت عنه لانه قاصر عن سلوك طريق الحجاج، ولو كان اهلاً له كان مستتبعًا لا تابعًا واماما لا مأمومًا فإن خاض المقلد فى المحاجَّة فذلك منه فضول والمشتغل به صار كضارب فى حديد بارد وطالب لصلاح الفاسد، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟ ولعلك إن انصفت علمت ان من جعل الحق وقفًا على واحد من النظار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض اقرب.

اما الكفر فلأنه نزَّله منزلة النبى المعصوم من الزلل، الذى لا يثبت

الايمان الا بموافقته ولا يلزم الكفر الا بمخالفته واما التناقض فهو ان كل واحد من النظار يوجب النظر وان لا ترى فى نظرك الا ما رأيت وكل ما رأيته حجة، وأى فرق بين من يقول قَلّدنى فى مجرد مذهبى وبين من يقول قلدنى فى مذهبى ودليلى جميعًا؟ وهل هذا الا التناقض.

فصل

لعلك تشتهي ان تعرف حد الكفر بعد ان تتناقض عليك حدود اصناف المقلدين، فاعلم أن شرح ذلك طويل ومدركه غامض ولكنى اعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى بسببها عن تكفير الفرق وتطويل اللسان فى اهل الاسلام وان اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، صادقين بها غير مناقضين لها فأقول:

الكفر: هو تكذيب الرسول ﷺ فى شيء مما جاء به، والايمان: تصديقه فى جميع ما جاء به، فاليهودى والنصرانى[1] كافران لتكذيبهما

(١) نسبة إلى اليهود والنصارى وهما امتان من كبار امم أهل الكتاب، والامة اليهودية اكبر سابقًا، لان الشريعة كانت لموسى عليه السلام وجميع بنى اسرائيل كانوا متعبدين بذلك مكلفين بالتزام احكام التوراة، والانجيل النازل على المسيح عليه السلام لم يختص باحكام ولا يستنبط منه حلال وحرام، ولكنه رموز وامثال ومواعظ ومزاجر، وما سواها فى الشرائع والاحكام فمحالة على التوراة، فكانت اليهود لهذه القضية لم ينقادوا لعيسى، عليه السلام، وادعوا عليه انه كان مأموراً بمتابعة موسى وموافقة التوراة فغيَّر وبدَّل، وعدوا عليه تلك التغيرات منها تغير السبت الى الاحد، ومنها تغيير اكل الخنزير، وكان حرامًا فى التوراة، ومنها الختان والغسل وغير ذلك، والمسلمون قد بينوا ان الامتين قد بدلوا وحرفوا والا فعيسى كان مقرراً لما جاء به موسى عليه السلام، وكلاهما مبشران بمقدم نبينا نبى الرحمة، صلوات الله عليهم اجمعين، وقد امرهم ائمتهم وانبياؤهم وكتابهم بذلك، وانما بنى اسلافهم الحصون والقلاع بقرب المدينة لنصرة رسول آخر الزمان فامروهم بمهاجرة أوطانهم بالشام إلى تلك القلاع والبقاع، حتى اذا ظهر وعلن الحق بعد ان هاجروا إلى يثرب هجروه وتركوا نصرته، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ

للرسول، ﷺ والبرهمىٌ كـافر بالطريق الأولى[١]، لأنه انكر مع رسـولنا

عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وانما الخلاف بين اليهود والنصـارى ما كان يرتفع الا بحكمة، اذ كانت اليهود تقول ليست النصارى على شيء وكـانت النصارى تقول ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتـاب، وكان النبى ﷺ يقول: «لـستم على شيء حتى تقـيمـوا التوراة والانجيل» وما كـان يمكنهم اقامتها الا باقـامة القرآن وتحكيم نبىّ الرحمـة رسول آخر الزمان، فلما ابوا ذلك ضُربت عليـه الذلة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله، ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله.

واظهرُ فرق اليهود خمسة: العنانية والعيسوية واليوزعانية والموشكانية والسامرة، وتحتها فرق، فهذه الفرق هى اكبر فرق اليهود.

واما النصـارى فكبار فرقهم ثلاثة: الـملكائية والنسطورية واليعـقوبية، وانشعبت منها الاليانـية والبليارسـية والسـبالية والبوطينوسـية والبـولية... إلى سائر الـفرق. اهـ. اختصار. شهرستانى.

(١) نسبة إلى برهم، وهو المعبود الأول عند الهنود، وهو أصل كل الموجودات، واحد غير متغير وغير مدرك، ازلى مطلق، سابق كل مخلوق، خلق العالم كله بمجرد ما أراد دفعة واحدة بقوله «أوم» أى كن، وعلى ذلك لا يكون برهم الا تشخـيصًا لكل القوى الباطنة والظاهرة للطبيعة، أى عبارة عن هذه القوى الطبيعيـة مجتمعة فى فرد مستمر زمنًا طويلاً على حالة واحـدة، وكثيراً مـا يجعلون نفس برهم اسمًـا للاقانيم الثلاثة المـؤلف منها ثالوث الهنود، وهى: برهما ووشنو وسـيوا، ويقال لبرهم سوايمـيو، أى القائم بذاته، وسـرفـان اكـيـاران، أى الازل، وبرامندا أى بيـضـة برهـمـا، وبراجـاباتى، أى ابا المخلوقات، واهام أى انا هو، واهنكارا أى قدرتى انا، وقتش أى الكلمة.

ولفظة برهم فارسـية مركـبة من برای ارتفـاع، وماه أى عظيم، أو ميـه أى النشر، أو البسط، كناية عن القبة المقعرة السماوية التى لا تتغير شكلاً ولا وضعًا والنجوم الزاهرة تحتـها، ومن برهم تولـد النور المسمـى عندهم مارتشى الذى اتحـد مع فاسـيابا، اى الخلاء، فولدا كل الكائنات.

فالثالـوث اذًا ليس الا عبارة عن المخلوقـات المادية فى ثلاث رتب: رتبة عليـاء ورتبته وسطى ورتبة سفلى.

ويقال لعبدة برهم: البرهميون والبـراهمة وبرهـما نفس برهـم، معبود الهنود بعد ان =

= شرع فى اعمـاله وهو الاقنوم الأول من الثالوث الهندى، لان برهم ينبثق مـن نفسه فى ثلاثة اقانيم كل مرة فى اقنوم، فالاقنوم الأول الذى يظهر به أول مرة هو برهما، والثانى وشنو، والثـالث سيـوا، فلما انبـثق برهما لبث مـدة طويلة جالسًـا على سدرة تسـمى بالهندية كمالا، وبالسنسكرينية بدما، وكان ينظر من كل جهة، وله اربعة رءُوس بثمانى اعين، فلم يرَ الا فضـاء واسعًا مظلمًا مملوءًا ماء، فـارتاع لذلك ولم يقدر ان يدرك سر اصله، فلبث ساكتًا ابكـم غارقًا فى التأملات فمضت على ذلك اجـيال، واذا بصوت قد طرق اذنيه بغتة ونبهه من سبـاته وأشار عليه ان يفزع إلى باغاوان وهو لقب برهم فظهر برهم بصورة رجل له ألف رأس فسجد له برهما وجعل يسـبحه، فانشرح صدر باغاوان وابدع النور وكشف الظلمات وأظهر لعبده حالة كينونته والكائنات بصور جراثيم متخدرة واعطاه القوة لاخراجـها من هذا الخمول، فـبقى برهما يتأمل فى ذلك مـائة سنة الهية، وهى عبارة عن ستـة وثلاثين الف سنة شمسية، ثم ابتدأ بالعـمل، فابدع أولاً السموات السبع، المسـماة عندهم سُورغة وانارها بالاجـرام المسماة ديفانة، ثـم ابدع مرتيلوكا اى مقـر الموت، ثم الارض وقمريـها، ثم المـاكن السـبعة السـفلى المسمـاة بتالة وانارها بثمانية جواهر مـوضوعة على رءُوس ثمانى حيات، فالسموات والمسـاكن السفلى السبعة هى العوالم الاربعـة عشر فى المـيثلوجيا الـهندية، ثم خلق الارواح السبعـة لكى تعينه فامتنع بعـضها، فتزوج حينئـذ اخته سارا سواتى واولدها مائة ولد، وكـان البكر اسمه دكشا، فولد له خـمسون بنتًا فتزوجت ثلاثة عشـر منهن كاسيابا وولدت اديتى الارواح المنيرة المسـماة ديفانه، وهى التى تفعل الخـير وتسكن السموات، واختـها ديتى ولدت جمهورا غـفيراً من الارواح الشريرة المسماة اسـورة، وهى سكان الظلام وفاعلة كل شر فى العالم، ثم ان برهما ولد اربعة اولاد وهم: برهمان وكـتريا وفايسيا وسودرا، فكانوا أربع ارومات لاربع فرق أصلية، وتزوج الثلاثة الاخيرون بثلاث نساء منه. فهذا خلاصة ما فى الفيداس عن كيفية خلق العالم.

ثم ان برهما بعد ان كان الاله الخالق القدير سـقط عن رتبة وشنو الاقنوم الثانى وسيوا الاقنوم الثالث لانه انتفخ بالكبـرياء والعجب وظن نفسه نظير العلى فسـقط فى الجحيم ولم ينل العفو الا بشرط ان يتـجسد مرة فى كل من الاجيال الاربعة، فتـجسد أول مرة بصورة غراب شاعر اسمه كـاكابوشندا، وفى الثانية بصورة باريـا فلميكى، فكان اولا =

= نصًا ثم رجلاً عبوسًا رزينًا نادمًا، ثم ترجمانًا مشهورًا للفيداس، ومؤلفًا للراميانا، وفى المرة الثالثة بصورة فياسيا، وهو شاعر ومؤلف المهاربارانا واليغافة وعدة بورانات، وفى المرة الرابعة، وهو العصر الحالى المسمى كالى يوغ بصورة كالياداسا الشاعر التشخيصى العظيم، ومؤلف ساكنتالا ومنقح مؤلفات فلمينكى.

ثم ان برهما ظهر فى ثلاث أحوال، ففى الحال الأولى كان الواحد الصمد والكل الاعظم العلى وفى الحال الثانية ظهر منبثقًا من الاول اى شارعًا فى العمل وفى الحال الثالثة ظهر متجسدًا بصورة انسان وحكيم، وليس لبرهما عبادة عاملة عامة فى الهند بل له هناك هيكل واحد فقط، غير ان البراهمة يجعلونه موضوع عبادتهم ويدعونه مساء وصباحا، وهم يرمون الماء ثلاث مرات براحة ايديهم على الارض ونحو الشمس، ويجددون له عبادتهم وقت الظهر بتقديمهم له زهرة، وفى تقديس النار يقدمون له سمنًا مصفى كما يقدمون لاله النار، وهذا التقديس اهم واقدس من كل ما سواه، واسمه هوم.

ولبرهما القاب كثيرة ويمثل بلحية طويلة باحدى يديه سلسلة الكائنات والاخرى الاناء الذى فيه ماء الحيوة السموى راكبًا على الهمسا، وهو الطير الالهى الذى يشبه اللقلق والنسر.

واما برهمان فهو ابن برهما البكر، اخرجه من فيه وجعل نصيبه الكتب الاربعة المقدسة المسماة فيداس، كناية عن الكلمات الاربع التى نطق بها بافواهه الاربعة، فلما اراد برهمان ان يتزوج نظير اخوته قال له برهم انك ولدت للدرس والصلاة فيجب ان تبتعد عن العلاقات الجسدية فلم يقتنع برهمان بقول ابيه، فغضب برهما وزوجه بواحدة من جنيات الشر المسماة اسورة، ومن هذا ولد البراهمة، وهم الكهنة المقدسون الذين خصوا بتفسير الفيداس، وكانوا يتولون امر كل التقدمات التى يقدمها الهنود للالهة، وولد كشتريا صنف الحربيين من البراهمة وفايسيا صنف اهل الزراعة منهم وسودرا صنف العبيد، فالبراهمة اربعة اصناف.

ويستدل من هذه الرموز ان الصنفين الاولين هما من سلالة ايرانية اكتسحت بلاد هندستان وهم يسمون انفسهم ارياس، وهو نفس اربى عند اليونان، الذى هو اسم الماديين عندهم، والصنف الثالث هم السكان الاصليون المصقع الذين نهر السند ونهر الكنك، والصنف الرابع من سلالة الهنود الأولين الذين لونهم اصفر. =

= وربما كان اقتران برهمان بامرأة من نسل شرير رمزاً إلى أصل هذه الأمة المتولدة من الماديين والفرس، فاذاً البرهميون أو البراهمة الذين ولدوا من برهمان بن برهما كان اصلهم من سلالة رؤساء الهند الفاتحين، كما قيل، لانهم كانوا اصحاب الرتبة الشريفة العلمية فى ايران، وكان بعضهم يتكهن فسموا بذلك من بر بالفارسية، ومعناها فوق، ومان ومعناه رجل حكيم، فلما اشتركوا بالحروب مع اهل بقطريانة وشطوط نهر السند وكابل وافغانستان صاروا أصحاب الرتبة الثانية، وهم الكشترية والخصام الذى بينهم وبين اصحاب زرادشت المجوس، فالظاهر أن سببه الشرك الذى اراد زرادشت ان يبطله ويجعل الناس يعبدون معبوداً واحداً، والبراهمة يعتبرون الشمس التى هى ينبوع النور والحرارة، الاله الوحيد وأول المعبودات وذلك دليل على انهم فرع قديم من اهل العبادة القديمة المجوسية التى اصلحها زرادشت.

ولا يعلم بالتحقيق الزمن الذى استوطنت فيه البراهمة فى هندستان، وقد ذكر هيرودونس عن الشعوب الذين كانوا ساكنين على ضفاف نهر الكنك كلاماً يستفاد منه ان البراهمة لم يكونوا إلى ذلك الوقت فتحوا البلا فانه يقول: ان سكان اهل البلاد كانوا امتين: احداهما وحشية والاخرى انيسة، وكانوا يقتاتون بالنبات، فالأولى لا يمكن ان تكون برهمية، والثانية لا يمكن ان تكون قادرة على فتح البلاد لضعفها، وذكر فى رواية ساكتالا انه فى زمن الملك دشمانتا كان البراهمة لا يأكلون الصيد، وربما كان البراهمة فاتحو هندستان قد اقتبسوا بعض عادات الامة الأنيسة المذكورة، ومنعوا اكل اللحوم نظيرهم، وربما كانوا قد اقتبسوا قسماً عظيماً السيوائية التى كانت من زمن طويل فى لانكا، اى جزيرة سيلان، وفى جوار الكنك وهى فى الاصل من ايران، والبراهمة هم كهنة الهنود وحكماؤهم وعلماؤهم ورؤساء الدين والعلم والأدب يشتغلون بالصلاة والتسبيح والترتيل والعلوم الالهية والطب والتنجيم، ويتنسك بعضهم فى كهوف الجبال وعلى ضفاف الكنك.

وقد سميت طائفة منهم عند اليونان باسم جيمنوسوفست، أى حكماء عراة لانهم كانوا لا يلبسون ثياباً ولا يسترون اجسامهم، وهم قليلو الكلام، لا يأكلون لحم الحيوان، بل يقتصرون فى قوتهم على النباتات والثمار ولبن البقر والادر، ويكثرون الصوم، وقد ذكر بلوترخس ان الحكماء العشرة الذين اسرهم الاسكندر الكبير كانوا عراة، وان الاسكندر تعجب من حذاقتهم وحدة اذهانهم وانه اعادهم موقرين تحفاً. =

سائر المرسلين، والدهرى[١] كافر بالطريق الأولى لانه انكر مع رسولنا

= وقد ذكر بعض العلماء البراهمة انهم قوم عكفوا على الفلسفة وعبادة الشمس يعيشون فى الفلاة يشتغلون بالوقوف على الحقائق لا يأكلون شيئًا من اللحوم ولا يلبسون الا نسيج الاسبستوس ينسجونه بايديهم ولايغسلونه، بل اذا اتسخ يطرحونه فى نار شديدة فينقى ويبيض كالثلج.

ومهما اختلفت الآراء فيهم فالمعروف ان الانيسة كانوا يسكنون الغابات والكهوف والفلوات، وعن الانيسة اخذ الهنود معارفهم وحكمتهم التى اخذت فى هذه الاعصر بالتلاشى.

والبراهمة لا يجوزون على الله بعثة الرسل ويعتقدون خلود النفس والتناسخ، ويمارسون الوضوء والتقشفات وسائر الرياضات، وهم اربعة اصناف، كما تقدم: صنف الكهنة والعلماء، ثم الحربيون، ومنهم الحكام الملقبون بالرجة، اهل الزراعة، ثم الفعله اصحاب الصنائع والمهن. اهـ. بتصرف عن دائرة المعارف.

(١) نسبة إلى ابيقور الدهرى احد فلاسفة اليونان ومؤسس مذهب الدهرية، ويقال له ولاصحابه دهريون ونيشريون، أى طبيعيون، أسس مذهبه على انكار الاوهية جحد البعث والنشور، ويوم العرض والجزاء، وذهب الى ترك العبادات والادعية والصلوات ونحوها، وأن لا فائدة لكل ذلك، واستند بالحوادث كلها لطبيعة الدهر، وما ثمت الا ارحام تدفع وأرض تبلع، وكان يقول: ان من ضعف الرأى خوف الانسان من جهنم وان ما ذكره جاهلية اليونان من انواع عقابات جهنم ككون البعض يعاقب بالجوع والظمأ الدائم والبعض يعاقب بان يدحرج حجراً مستديراً من اسفل جبل الى اعلاه، كلما دحرجه عاد إليه، والبعض يكلف أن ينضح بدلوه حتى يملأ حوضًا متخرقًا، ونحو ذلك، فانما هى خرافات واختراعات للتنبيه على مكاره الدنيا وانه ينبغى للإنسان أن يتجنب ما يزعجه مما لا يستعمل الا لتنكيد معيشة الدنيا وتضييع الهناء.

ولد هذا الفيلسوف بمدينة اثينا فى السنة الثالثة من الالمبياد التاسع بعد المائة (أى قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة واربعة واربعين سنة) ومات باثينا بداء حصر البول، وذلك فى السنة الثانية من الالمبياد السابع والعشرين بعد المائة وعمره اثنان وسبعون سنة، ومن اراد الوقوف على ايضاح مذهبه فليرجع إلى تاريخ فلاسفة اليونان، فان ترجمته واعتقاده مبسوطان فيه، وأيضا إلى رسالة ابطال مذهب الدهريين للعلامة جمال الدين فانها غاية فى بابها. اهـ.

المرسل سائر الرسل، وهذا لأن الكفر حكم شرعيّ كالرق والحرية مثلا إذ معناه اباحة الدم والحكم بالخلود فى النار ومدركه شرعيّ فيدرك إما بنص وإما بقياس على منصوص.

وقد وردت النصوص فى اليهود والنصارى والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية[1].

(١) قال المقريزى: هم المجوس ويقولون باصلين هما النور والظلمة، ويزعمون أن النور هو يزدان والظلمة اهرمن، ويقرون بنبوة ابراهيم عليه السلام، وهم ثمانى فرق: الكيومرتيه اصحاب كيومرت، الذى يقال: انه آدم، والزروانية اصحاب زروان الكبير، والزرادشتية اصحاب زرادشت ابن بيورشت الحكيم، والثنوية اصحاب الاثنين الاولين، والمانوية اصاب مانى الحكيم، والمزدكية أصحاب مزدك الخارجى، والبيصانية أصحاب بيصان القائل بالاصلين القديمين، والفوقونية القائلون بالأصلين وأن الشر خرج على ابيه، وأنه تفكر فى فكرة أفكرها فى نفسه، فلما خرج على أبيه الذى هو الاله بزعمهم عجز عنه ثم وقع الصلح بينهما على يد الندمات، وهم الملائكة، ومنهم من يقول بالتناسخ ومنهم من ينكر الشرائع والانبياء ويحكمون القول ويزعمون أن النفوس العلوية تفيض عليهم الفضائل.

ونقل التهانوى أن الثنوية فرقة من الكفرة يقولون باثنينية الاله، قالوا نجد فى العالم خيراً كثيراً وشراً كثيراً، وان الواحد لا يكون خيرا شريراً بالضرورة، فلكل منها فاعل على حدته، وتبطله دلائل الوحدانية، ثم المأمونة والديصانية من الثنوية، قالوا: فاعل الخير هو النور وفاعل الشر هو الظلمة، والنور حيّ عالم قدير سميع بصير، والمجوس منهم ذهبوا الى ان فاعل الخير هو يزدان وفاعل الشر هو اهرمن ويعنون به الشيطان. اهـ.

واما البصانية الذين ذكرهم المقريزى فالصواب انهم الديصانية الذين ذكرهم التهانوى، والمأمونية الذين ذكرهم المقريزى، وان يزدان الذى ذكر فى كليهما هو المعروف عند الفرس باسم اورمزد، وتحقيق المذهب أنه ميثولوجى أو دينى فقد ذكر الوثنيون فى لاهوتهم ان المعبودات قسمان منبثقان من اصلين اولين، الواحد فاعل الخير والآخر فاعل الشر، فمنهم من يقول ان كليهما متساويان فى القوة والزمان، ومنهم من يقول =

والزنادقة[1] والدهرية، وكلهم مشركون فانهم مكذبون للرسول فكل كافر مكذب للرسول، وكل مكذب فهو كافر.

فهذه هى العلامة المطردة المنعكسة.

= ان فاعل الخير ادنى رتبة من فاعل الشر، وان الأول سينتصر على الثانى انتصاراً تامًا، والمذهب الميثولوجى شاع بين كل الامم القديمة تقريبًا وعبروا عنه برموز مختلفة، فالصينيون قالوا ان ينغ هو اصل الخير، وين هو اصل الشر، وعند المصريين كان تيفون عبارة عنهما وكذلك نفتيس ذو الصفتين وعند الهنود ان وشنو اصل الخير، وانه يحارب اصل الشر على صورة مختلفة، وان فارونا مشترك بينهما، فتارة يكون للخير واخرى للشر، وعند الفرس هما أورمزد واهرمن، واما مذهب الفلاسفة فالثنوية يقصدون تقرير أصل الشر وايضاح تركيب العالم وبقائه، فالأصلان المزعومان عندهم هما الروح أو العقل والمادة، فالروح هى المبدأ الفاعل، ويزعمون أنه لولا المادة لم يمكنه أن يخلق العالم.

وذهب افلاطون الى ان دوام المادة هو سبب الشر، والرواقيون من هذا المذهب.

وقد اختلفت آراء الفلاسفة فى طبيعة المادة، فذهب فيثاغورس الى انها عدد ينقسم الى ما لا نهاية له، وقال افلاطون: انها الحيز او الاين والكمية غير المحدودة، وقال ارسطو انها الكائن ذو القدرة والبسيط الممكن. اهـ. دائرة المعارف.

(١) جمع زنديق والهاء عوضًا عن الياء المحذوفة، وأصل الجمع زناديق، وهى كلمة فارسية معربة عن زندة نسبة الى زند، اسم كتاب أظهره مزدك رئيس الفرقة المزدكية من الثنوية فى زمن كسرى قباد، فنسب اليه اصحابه، وهم الزنادقة، وقتله كسرى انوشروان، وقيل معرب زن دين، أى صاحب الدين، اشارة إلى المعتقد بدين زرادشت، او هى معربة عن الزندا وهو دين المجوس، وفى تعريفه اقوال كثيرة، منها: انه الثنوى القائل بوجود خالقين أحدهما اله النور، وهو يزدان، والثانى اله الظلمة، وهو اهرمن، والأول اله الخير وخالقه، والثانى اله الشر وخالقه، وهو مذهب الفرس القدماء، وقيل انه من لا يؤمن بالله والربوبية، وكتب الزنادقة تبيح الاشتراك فى الأموال والنساء كاشتراك الناس فى الماء والكلأ، ويطلق لفظ الزنديق عند العرب على من ينفى وجود الباري تعالى او يثبت له شريكًا او ينكر حكمته، وعلى هذا قول ابن الراوندى:

= كم عـــاقـل أعـــيت مـــذاهـبـــه
وجـــاهل جـــاهل تـلقـــاه مـــرزوقـــا
هـذا الذى تـرك الاوهام حـــــائـرة
وصـــيـــر العـــالـم النحـــرير زنديقـــا

أى لو كان للعالم صانع حكيم لما كان العاقل ردىء الحال والجاهل رخىّ الحال وقيل انه من يبطن الكفر ويظهر الايمان، وعليه قول بعضهم:

بغـــداد دار لاهل المـــال طيـــبـــة
وللمـــفـــاليس دار الضـنك والضـــيق
ظللت حـــيـران أمـشى فى أرقـــتـهـا
كـــأننـى مـــصـــحف فى بيـت زنديق

وقيل: انه من لا يتدين بدين.

اما حكمه الشرعى فقد قيل: انه لا يخلو امـا ان يكون معروفًا داعيًا الى الضلال او لا، والاول يقتل ولا تقبل توبته، الا ان كانت ابتـداء منه من غير خوف قتل الحاكم، وهذا مذهب الامام مالـك والغزالى وبعض اصحاب الامام الشافـعى وابى الليث، وعليه افتى الامام القاضى فخر الدين خان، رحم الله الجميع، والثانى على ثلاثة اوجه: وهو اما ان يكون زنديقًا من الاصل على الشرك، او يكون مسلمًا فـتزندق، او يكون ذميًا فتزندق، فالأول يتـرك على شركه ان كـان من العجم، لأنه كافـر اصلى، والثانى يعـرض عليه الاسلام فان اسـلم فبها، والا قتـل لأنه مرتد، والثالث يترك على حـاله لان الكفر ملة واحدة.

وهذا خلاصـة ما قيل فى رسـالة ابن كمال باشـا، ورسالة اخرى لاحـد علماء الدولة العثمانية ودائرة المعارف، وبعض كتب اللغة فى حكم الزنديق وحدّه.

فصل

اعلم ان الذى ذكرناه مع ظهوره تحته غور بل تحته كل الغور لان كل فرقة تُكَفِّرُ مخالفَها وتنسبه إلى تكذيب الرسول ﷺ .

فالحنبلى يكفر الاشعرى زاعمًا انه كذَّب الرسول ﷺ فى اثبات الفوق لله تعالى وفى الاستواء على العرش، والاشعرى يكفره زاعمًا انه مشبّه وكذب الرسول ﷺ فى انه ليس كمثله بشىء.

والاشعرى يكفر المعتزلىَّ زاعمًا انه كذب الرسول ﷺ فى جواز رؤية الله تعالى وفى اثبات العلم والقدرة والصفات له، والمعتزلى يكفر الاشعرى زاعمًا ان اثبات الصفات تكفير للقدماء وتكذيب للرسول ﷺ فى التوحيد.

ولا ينجيك من هذه الورطة إلا ان تعرف حدّ التكذيب والتصديق وحقيقتهما فيه، فينكشف لك غلو هذه الفرق واسرافها فى تكفير بعضها بعضًا.

فأقول: التصديق انما يتطرق إلى الخبر بل إلى المُخْبِر وحقيقة الاعتراف بوجوه ما اخبر الرسول ﷺ عن وجوده.

إلا أن للوجود خمس مراتب ولاجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب، فان الوجود ذاتى وحسى وخيالى وعقلى وشبهى، فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الاطلاق.

فلنشرح هذه الاصناف الخمسة، ولنذكر امثالها فى التأويلات:

اما الوجود الذاتى فهو الوجود الحقيقى، الثابت خارج الحس والعقل، ولكن يأخذ الحس والعقل عنه صورة فيسمى اخذه ادراكًا وهذا كوجود السموات والأرض والحيوان والنبات، وهو ظاهر، بل هو المعروف الذى لا يعرف الاكثرون للوجود معنًى سواه.

وأما الوجود الحسى فهو ما يتمثل فى القوة الباصرة من العين مما لا وجود له خارج العين فيكون موجودًا فى الحس ويختص به الحس ولا يشاركه غيره، وذلك كما يشاهده النائم، بل كما يشاهده المريض المتيقظ، اذ قد تتمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسه حتى يشاهدها كما يشاهد سائر الموجودات الخارجة عن حسه، بل قد تتمثل للانبياء والأولياء فى اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجواهر الملائكة، وينتهى اليهم الوحى والالهام بواسطتها، فيتلقون من امر الغيب فى اليقظة ما يتلقاه غيرهم فى النوم، وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال تعالى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ وكما انه ﷺ رأى جبريل عليه السلام كثيرًا ولكن ما رآه فى صورته إلا مرتين، وكان يراه فى صورة مختلفة يتمثل بها، وكما يُرى رسول الله ﷺ فى المنام، وقد قال: «من رآنى فى النوم فقد رآنى حقًّا، فان الشيطان لا يتمثل بى» ولا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضة المدينة إلى موضع النائم، بل هى على سبيل وجود صورته فى حس النائم فقط، وسبب ذلك وسره طويل، وقد شرحناه فى بعض الكتب.

فان كنت لا تصدق به فصدق عينك فانك تأخذ قبسًا من نار كأنه نقطة

ثم تحركه بسرعة حركة مستقيمة فتراه خطًا من نار وتحركه حركه مستديرة فتراه دائرة من نار والدائرة والخط مشاهدان وهما موجودان فى حسك لا فى الخارج عن حسك، لان الموجود فى الخارج هى نقطة فى كل حال، وانما تصير خطًا فى أوقات متعاقبة فلا يكون الخط موجودًا فى حالة واحدة وهو ثابت فى مشاهدتك فى حالة واحدة.

واما الوجود الخيالى فهو صورة هذه المحسوسات اذا غابت عن حسك فانك تقدر على ان تخترع فى خيالك صورة فيل وفرس وان كنت مغمضًا عينيك حتى كأنك تشاهده، وهو موجود بكمال صورته فى دماغك لا فى الخارج.

وأما الوجود العقلى فهو ان يكون للشىء روح وحقيقة ومعنًى فيتلقى العقل مجرد معناه دون ان يثبت صورته فى خيال او حس او خارج كاليد مثلاً، فان لها صورة محسوسة ومتخيلة، ولها معنًى هو حقيقتها وهى القدرة على البطش، والقدرة على البطش هى اليد العقليَّة، وللقلم صورة ولكن حقيقته ما تنقش به العلوم، وهذا يتلقاه العقل من غير أن يكون مقرونًا بصورة قصب وخشب وغير ذلك من الصور الخيالية والحسية.

وأما الوجود الشبهى فهو أن لا يكون نفس الشىء موجودًا لا بصورته ولا بحقيقته لا فى الخارج ولا فى الحس ولا فى الخيال ولا فى العقل، ولكن يكون الموجود شيئًا آخر يشبهه فى خاصة من خواصه وصفة من صفاته، وستفهم هذا اذا ذكرت لك مثاله فى التأويلات.

فهذه مراتب وجود الاشياء.

فصل

اسمع الآن امثلة هذه الدرجات فى التأويلات:

أما الوجود الذاتى فلا يحتاج إلى مثال، وهو الذى يجرى على الظاهر ولا يتأول، وهو الوجود المطلق الحقيقى، وذلك كإخبار الرسول ﷺ عن العرش والكرسى والسموات السبع، فانه يجرى على ظاهره ولا يتأول، اذ هذه اجسام موجودة فى انفسها أدركت بالحس والخيال أو لم تدرك

وأما الوجود الحسى فأمثلته فى التأويلات كثيرة، واقنع منها بمثالين:

احدهما: قول رسول الله ﷺ: «يُؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش املح فيذبح بين الجنة والنار» فان من قام عنده البرهان على ان الموت عرض او عدم عرض، وانَّ قَلْبَ العرض جسمًا مستحيل غير مقدور ينزَّل الخبر على ان اهل القيامة يشاهدون ذلك ويعتقدون انه الموت، ويكون ذلك موجودًا فى حسهم لا فى الخارج، ويكون سببًا لحصول اليقين باليأس عن الموت بعد ذلك، اذ المذبوح ميئوس منه، ومن يقم عنده هذا البرهان فعساه يعتقد ان نفس الموت ينقلب كبشًا فى ذاته ويُذبح.

المثال الثانى: قول رسول الله ﷺ: «عُرِضت علىَّ الجنة فى عُرْض هذا الحائط» فمن قام عنده البرهان على ان الاجسام لا تتداخل وان الصغير لا يسع الكبير حمل ذلك على ان نفس الجنة لم ينتقل على الحائط لكن تمثل للحس صورتها فى الحائط حتى كأنه يشاهدها، ولا يمتنع ان يشاهد مثال شىء كبير فى جرم صغير كما تشاهد السماء فى مرآة صغيرة، ويكون

ذلك إبصاراً مفارقًا لمجرد تخيل صورة الجنة إذ تدرك التفرقة بين أن ترى صورة السماء فى المرآة وبين ان تغمض عينيك فتدرك صورة السماء فى المرآة على سبيل التخيل.

واما الوجود الخيالى فمثاله قوله ﷺ: «كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه عباءتان قَطَوانيَّتان يلبى وتجيبه الجبال، والله تعالى يقول له لبَّيْكَ يا يونس والظاهر ان هذا إنباءٌ عن تمثيل الصورة فى خياله، اذ كان وجود هذه الحالة سابقًا على وجود رسول الله ﷺ، وقد انعدم ذلك فلم يكن موجوداً فى الحال.

ولا يبعد أن يقال ايضًا تمثل هذا فى حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد النائم الصور، ولكن قوله: «كأنى أنظر» يشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر بل كالنظر، والغرض التفهيم بالمثال لا عين هذه الصورة، وعلى الجملة فكل ما يتمثل فى محل الخيال فيتصور أن يتمثل فى محل الابصار فيكون ذلك مشاهدة، وقل ما يتميز بالبرهان استحالة المشاهدة فيما يتصور فيه التخيل.

وأما الوجود العقلى فامثلته كثيرة فاقنع منها بمثالين:

احدهما: قوله ﷺ: «آخر من يخرج من النار يعطى من الجنة عشرة امثال هذه الدنيا» فان ظاهر هذا يشير إلى أنه عشرة امثالها بالطول والعرض والمساحة، وهو التفاوت الحسى والخيالى، ثم قد يتعجب فيقول ان الجنة فى السماء كما دلت عليه ظواهر الاخبار فكيف تتسع السماء لعشرة امثال الدنيا والسماءُ أيضًا من الدنيا، وقد يقطع التأوّل هذا بالتعجب فيقول المراد به تفاوت معنويّ عقليّ لا حسى ولا خيالى، كما يقال مثلاً: هذه الجوهرة

اضعـاف الفرس اى فى روح المـالية ومعنـها المدرك عـقلاً دون مسـاحتـها المدركة بالحس والتخيّل.

المثال الثانى: قوله ﷺ: «ان الله تـعالى خمّـر طينة آدم بيده اربـعين صباحًا» فقد اثبت لله تعـالى يداً، ومن قام عنده البرهان على استحالة يد لله تعالى هى جـارحة محسوسـة أو متخيلة فـانه يثبت لله سبحانـه يداً روحانية عقلية، اعنى انه يثـبت معنى اليد وحقيـقتها وروحهـا دون صورتها، ان روح اليـد ومعناها مـا به يبطش ويفـعل ويعطى ويمنع، والله تعـالى يعطى ويمنع بواسطة ملائكته، كما قال ﷺ: «أول ما خلق الله العقل، فقال بك اعطى وبك امنع» ولا يمكن ان يكـون المراد بذلك العـقل عـرَضًـا كمـا يعـتقـده المتكلمون، اذ لا يمكن ان يكون العـرض أول مخلوق، بل يكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة يسمى عقلاً من حيث يعقل الاشياء بجوهره وذاته من غير حاجة إلى تعلم، وربما يسمى قلما باعتبار انه تنقش به حقائق العلوم فى ألواح قلوب الانبياء والأولياء وسائر الملائكة وحـيًا والهامًا، فانه قد ورد فى حديث آخر ان اول ما خلق الله تعـالى القلم، فان لم يرجع ذلك إلى العقل تناقض الحـديثان، ويجوز أن يكون لشـىء واحد اسمـاء كثيـرة باعتـبارات مختلفة، فـيسمى عقلا باعتـبار ذاته، وملكا باعتبار نسبـته إلى الله تعالى فى كونه واسطة بيـنه وبين الخلق، وقلمًا باعتـبار اضافـته إلى مـا يصدر منه من نقش العلوم بالالهام والوحى، كمـا يسمى جبريل روحًا باعتـبار ذاته، وأمينًا باعتبار مـا اودع من الاسرار، وذا مِرَّة باعتبار قدرته، وشديد القـوى باعتبار

كمال قوته، ومكينًا عند ذى العرش باعتبار قرب منزلته، ومطاعًا باعتبار كونه متبوعًا فى حق بعض الملائكة.

وهذا القائل يكون قد اثبت قلما ويدًا عقليًا لا حسيًا وخياليًا، وكذلك من ذهب إلى أن اليد عبارة عن صفة لله تعالى، إما القدرة أو غيرها كما اختلف فيه المتكلمون.

وأما الوجود الشبهى فمثاله: الغضب والشوق والفرح والصبر وغير ذلك، مما ورد فى حق الله تعالى، فان الغضب مثلا حقيقته انه غليان دم القلب لارادة التشفى، وهذا لا ينفك عن نقصان وألم، فمن قام عنده بالبرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله ثبوتًا ذاتيًا وحسيًا وخياليًا وعقليًا نزله على ثبوت صفة اخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب، كارادة العقاب، والارادة لا تناسب الغضب فى حقيقة ذاته، ولكن فى صفة من الصفات تقارنها واثر من الآثار يصدر عنها، وهو الايلام.

فهذه درجات التأويلات.

فصل

اعلم ان كل من نزَّل قولاً من اقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين.

وانما التكذيب ان ينفى جميع هذه المعانى ويزعم ان ما قاله لا معنى له، وانما هو كذب محض، وغرضه فيما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا، وذلك هو بالكفر المحض والزندقة، ولا يلزم كفر المأولين ما داموا يلازمون قانون التأويل ـ كما سنشير اليه ـ وكيف يلزم الكفر بالتأويل وما من فريق من اهل الاسلام الا وهو مضطر اليه، فابعد الناس عن التأويل احمد بن حنبل ـ رحمة الله عليه ـ وابعد التأويلات عن الحقيقة واغربها ان تجعل الكلام مجازًا أو استعارة هو الوجود العقلى والوجود الشبهى، والحنبلى مضطر إليه وقائل به، فقد سمعت الثقات من ائمة الحنابلة ببغداد يقولون ان احمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ صرح بتأويل ثلاثة احاديث فقط: **احدها:** قوله ﷺ: «الحجر الاسود يمين الله فى الارض» **والثانى:** قوله ﷺ: «قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن» **والثالث:** قوله ﷺ: «انى لأجد نفس الرحمن من قِبَلِ اليمين».

فانظر الآن كيف اول هذا حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره فيقول اليمين تُقَبِّلُ فى العادة تقربًا إلى صاحبها، والحجر الاسود يُقَبِّلُ ايضًا تقربًا إلى الله تعالى، فهو مثل اليمين لا فى ذاته، ولا فى صفات ذاته ولكن فى عارض من عوارضه، فسمى لذلك يمينًا، وهذا الوجود هو الذى سميناه

الوجود الشبهى، وهو ابعد وجوه التـأويل فانظر كيف اضطر إليه أبعد الناس عن التأويل.

وكذلك لما استـحال عنده وجود الاصبعين لله تعـالى حسًا اذ من فتش عن صدره لم يشاهد فيه اصبعـين، فتأوله على روح الاصبعين وهى الاصبع العقلية الروحـانية، اعنى ان روح الاصبع ما به يتيسـر تقليب الاشياء، وقلب الانسان بين لمـة الملَك ولمة الشيطان وبهمـا يقلب الله تعالى القلوب فكنى بالاصبعين عنهما.

وانما اقتصر احـمد بن حنبل رضي الله عنه على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة لانه لم تظهر عنـده الاستحـالة الا فى هذا القدر، لانه لم يكن ممـعنًا فى النظر العقلى ولو امـعن لظهر له ذلك فى الاختـصاص بجهـة فوق وغيره مـما لم يتأوّله.

والأشعرى والمـعتزلى لزيادة بحثـهما تجاوزا إلى تأويل ظواهر كـثيرة، وأقرب النـاس الى الحنابلة فى امور الآخـرة الاشعـرية، وفقهم الله، فـانهم قرروا فيها اكثر الظواهر الا يسيـرًا، والمعتزلة أشد منهم توغلا فى التأويلات وهم مع هذا ـ اعنى الاشعـرية ـ يضطرون أيضًا إلى تأويل أمور كمـا ذكرناه من قوله انه يُؤتى بالموت فى صورة كبش املح، وكما ورد من وزن الاعمال بالميزان، فـان الاشعرى أوَّل وزن الاعمـال فقال: توزن صحـائف الاعمال ويخلق الله فيها اوزانًا بقدر درجات الأعـمال، وهذا ردٌّ إلى الوجود الشبهى البعيد، فان الصحائف اجسام كـتبت فيها رقوم تدل بالاصطلاح على اعمال

هى اغراض، فليس الموزون اذا العمل بل محل نقش يدل بالاصطلاح على العمل.

والمعتزلى تأول نفس الميزان وجعله كناية عن سبب به ينكشف لكل واحد مقدار عمله وهو أبعده عن التعسف فى التأويل بوزن الصحائف.

وليس الغرض تصحيح احد التأويلين بل أن تعلم ان كل فريق وان بالغ فى ملازمة الظواهر فهو مضطر إلى التأويل الا ان يجاوز الحد فى الغباوة والتجاهل فيقول: الحجر الاسود يمين تحقيقًا، والموت وان كان عرضًا فيستحيل فينتقل كبشًا بطريق الانقلاب، والاعمال وان كانت اعراضًا وقد عدمت فتنتقل إلى الميزان ويكون فيها اعراض هى الثقل، ومن ينتهى إلى هذا الحد من الجهل فقد انخلع من ربقة العقل.

فصل

فاسمع الآن قانون التأويل فقد علمت اتفاق الفِرَقِ على هذه الدرجات الخمس فى التأويل، وان شيئًا من ذلك ليس من حيز التكذيب، واتفقوا ايضًا على ان جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر، والظاهر الأول هو الوجود الذاتى، فانه اذا ثبت تضمّن الجميع فان تعذر فالوجود الحسى، فانه ان ثبت تضمن ما بعده فان تعذر فالوجود الخيالى او العقلى، وان تعذر فالوجود الشبهى المجازى، ولا رخصة للعدول عن درجة إلى ما دونها الا بضرورة البرهان، فيرجع الاختلاف على التحقيق الى البراهين اذا يقول الحنبلى: لا برهان على استحالة اختصاص البارى بجهة فوق، ويقول الاشعرى: لا برهان على استحالة الرؤية، وكأن كل واحد لا يرضى بما ذكره الخصم ولا يراه دليلا قاطعًا.

وكيف ما كان فلا ينبغى ان يُكَفِّرَ كلُّ فريق خصمه بأن يراه غالطًا فى البرهان، نعم يجوز ان يسميه ضالا أو مبتدعًا: أما ضالاً فمن حيث انه ضل عن الطريق عنده، وأما مبتدعًا فمن حيث انه ابتدع قولا لم يعهد من السلف الصالح التصريح به، إذا المشهور فيما بين السلف ان الله تعالى يُرَى، فيقول القائل: لا يُرَى بدعة، وتصريحه بتأويل الرؤية بدعة بل إن ظهر عنده ان تلك الرؤية معناها مشاهدة القلب فينبغى ان لا يظهره ولا يذكره، لان السلف لم يذكروه.

لكن عند هذا يقول الحنبلى: اثبات الفوق لله تعالى مشهور عند

السلف، ولم يذكر احد منهم ان خالق العالم ليس متصلا بالعالم ولا منفصلا ولا داخلا ولا خارجًا وان الجهات الست خالية عنه، وان نسبة جهة فوق اليه كنسبة جهة تحت، فهذا قولٌ بَدِعٌ، اذ البدعة عبارة عن احداث مقالة غير مأثورة عن السلف، وعند هذا يتضح لك ان ههنا مقامين:

احدهما: مقام عوام الخلق، والحق فيه الاتباع والكف عن تغيير الظواهر رأسًا، والحذر عن ابداع التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة، وحسم باب السؤال رأسًا، والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث واتباع ما تشابه من الكتاب والسنة، كما رُوِىَ عن عمر رضي الله عنه انه سأله سائل عن آيتين متعارضتين فعلاه بالدرة، وكما روى عن مالك ـ رحمه الله ـ انه سئل عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم والايمان به واجب والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة.

المقام الثانى بين النظار الذين اضطربت عقائدهم المأثورة المروية فينبغى ان يكون بحثهم بقدر الضرورة، وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع، ولا ينبغى ان يكفر بعضهم بعضًا بأن يراه غالطًا فيما يعتقده برهانًا، فان ذلك ليس امرًا هينًا سهل المدرك وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به، فانهم اذا لم يتفقوا فى الميزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن.

وقد ذكرنا الموازين الخمسة فى كتاب (القسطاس المستقيم) وهى التى لا يتصور الخلاف فيها بعد فهمها اصلا، بل يعترف كل من فَهِمَهَا بأنها مدارك اليقين قطعًا، والمحصلون لها يسهل عليهم عقد الانصاف والانتصاف، وكشف الغطاء ورفع الاختلاف ولكن لا يستحيل منهم الاختلاف ايضًا إما

لقصور بعضهم عن ادراك تمام شروطه وإما فى رجوعهم فى النظر إلى محض القريحة والطبع دون الوزن بالميزان، كالذى يرجع بعد تمام تعلم العروض فى الشعر إلى الذوق لاستثقاله عَرْض كل شعر على العروض، فلا يبعد أن يغلط، وإما لاختلافهم فى العلوم التى هى مقدمات البراهين، فان من العلوم التى هى أصول البراهين تجريبية وتواترية وغيرها، والناس يختلفون فى التجربة والتواتر، فقد يتواتر عند واحد ما لا يتواتر عند غيره، وقد يتولى تجربة ما لا يتولاه غيره، وإما لالتباس قضايا الوهم بقضايا العقل، واما لالتباس الكلمات المشهورة المحمودة بالضروريات والاوّليات، كما فصلنا ذلك فى كتاب (محك النظر) ولكن بالجملة، اذا حصلوا تلك الموازين وحققوها أمكنهم الوقوف عند ترك العناد على مواقع الغلط على يسر.

فصل

من الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع، ولا ينبغى أن يُبادر أيضًا إلى كفره فى كل مقام بل ينظر فيه، فان كان تأويله فى أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهمّاتها فلا نكفّره، وذلك كقول بعض الصوفية ان المراد برؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس وقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ غير ظاهرها، بل هى جواهر نورانية ملكية، ونورانيتها عقلية لا حسية، ولها درجات فى الكمال نسبةُ ما بينها فى التفاوت كنسبة الكوكب والقمر والشمس، ويستدل عليه بأن الخليل عليه السلام اجلُّ من ان يعتقد فى جسم انه اله حتى يحتاج إلى ان يشاهد افُوله، افترى انه لو لم يأفل اكان يتخذه الهًا؟ ولو لم يعرف استحالة الالهية من حيث كونه جسما مقدَّرًا، واستدل بانه كيف يمكن ان يكون اول ما رآه الكوكب والشمس هى الاظهر، وهى اول ما يُرى واستدل بان الله تعالى قال أولا: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ثم حكى هذا القول، فكيف يمكن ان يتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له، وهذه دلالات ظنية وليست براهين.

اما قوله: هو اجل من ذلك، فقد قيل انه كان صبيًا لما جرى له ذلك، ولا يبعد ان يخطر لمن سيكون نبيًا فى صباه مثل هذا الخاطر ثم يتجاوزه على قرب ولا يبعد ان تكون دلالة الافول على الحدوث عنده اظهر من دلالة التقدير والجسمية.

وأما رؤية الكوكب أولاً فقد روى انه كان محبوسًا فى صباه فى غار وانما خرج بالليل.

وأما قوله تعالى اولا: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يجوز ان يكون الله تعالى قد ذكر حال نهايته ثم رجع إلى ذكر بدايته.

فهذه وامثالها ظنون يظنها براهينَ مَنْ لا يعرف حقيقة البرهان وشرطه، فهذا جنس تأويلهم، وقد تأولوا العصا والنعلين فى قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ وقوله ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ ولعل الظن فى مثل هذه الامور التى لا تتعلق باصول الاعتقاد تجرى مجرى البرهان فى اصول الاعتقاد، فلا يُكفَّر فيه ولا يُبدَّع، نعم ان كان فتح هذا الباب يؤدى الى تشويش قلوب العوام فيبدع به خاصة صاحبه فى كل ما لم يؤثر عن السلف ذكره، ويقرب منه قول بعض الباطنية[1] ان عجل السامرى مؤول، اذ كيف يخلو خلق كثير عن عاقل

(١) قوم يتسترون بالاسلام، وهم خارجون عنه، ولهم ألقاب كثيرة منها: الملاحدة والقرامطة والباطنية والاسماعيلية والنصيرية والحزمية والمحمرة، وهذه الاصناف منها ما يعمهم ومنها ما يخصهم، وظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض لانهم لا يؤمنون بنبى من الانبياء والمرسلين، لا بنوح ولا ابراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات الله عليهم اجمعين، ولا بشىء من كتب الله المنزلة كالتوراة والانجيل والقرآن، ولا يقرون بان للعالم خالقًا خلقه، ولا بأن له دينًا امر به، ولا ان له دارًا يجزى الناس فيها على اعمالهم سوى دار الدنيا، ويبنون عقائدهم تارة على قول الفلاسفة وتارة يؤولون الكتاب والسنة ويقولون بان الصلوات الخمس عبارة عن خمسة اسماء، وهى على وحسن وحسين ومحسن وفاطمة، وان ذكر اولئك الخمس يجزيهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلاة، والصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلاً واسم ثلاثين امرأة يعدونهم فى كتبهم، ويقولون يدا ابى لهب هما ابو بكر وعمر، والنبأ العظيم هو على بن ابى طالب، ولهم فى معاداة الاصحا

يعلم ان المُتَّخَذَ من الذهب لا يكون الهًا؟ وهذا أيضًا ظن، اذ لا يستحيل ان تنتهى طائفة من الناس اليه كعبدة الاصنام، وكونه نادراً لا يورث يقينًا.

واما ما يتعلق من هذا الجنس باصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع، كالذى ينكر حشر الاجساد وينكر العقوبات الحسية فى الآخرة بظنون واوهام واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعًا اذ، لا برهان على استحالة رد الارواح إلى الاجساد، وذِكْرُ ذلك عظيم الضرر فى الدين، فيجب تكفير كل من تعلق به وهو مذهب اكثر الفلاسفة وكذلك يجب تكفير من قال منهم ان الله تعالى لا يعلم الا نفسه او لا يعلم الا الكليات، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالاشخاص فلا يعلمها لان ذلك تكذيب للرسول ﷺ قطعًا، وليس من قبيل الدرجات التى ذكرناها فى التأويل، اذ أدلة القرآن والأخبار على تفهيم حشر الاجساد وتفهيم تعلق علم الله تعالى بتفصيل، كلما يجرى على الاشخاص مجاورٌ حدًا لا يقبل التأويل، وهم معترفون بان هذا ليس من التأويل، ولكن قالوا لما كان صلاح الخلق فى ان يعتقدوا حشر الاجساد لقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلى وكان صلاحهم فى ان يعتقدوا ان الله تعالى عالم بما يجرى

= وقائع مشهورة وكتب مصنفه، وقتلوا مرة الاسلام والقوهم فى بئر زمزم واخذوا مرة الحجر الاسود وبقى عندهم باليمن، ثم اعيد، ومنهم صاحب قلعة الموت وحسن الصباح ونصير الدين الطوسى، ومن مذهبهم ان لا ينصحوا مسلمًا ولا أحدًا من اهل الذمة، ولهم ضرر على المسلمين كثير، وفى غدرهم لخليفة بغداد وقتل المسلمين كفاية.

ومن أراد تفصيل معتقداتهم والحكم فى معاملتهم فليرجع لكتاب المستظهرى للمؤلف، أو لرسالة شيخ الاسلام ابن تميمة فى الرد على النصرانية. اهـ.

عليهم ورقيب عليهم، ليورث ذلك رغبة ورهبة فى قلوبهم جاز للرسول ﷺ ان يفهمهم ذلك وليس بكاذب من اصلح غيره فقال ما فيه صلاحه وان لم يكن كما قاله، وهذا القول باطل قطعًا لانه تصريح بالتكذيب ثم طلب عذرًا فى انه لم يكذب ويجب اجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة، ففى الصدق واصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب، وهذه أول درجات الزندقة، وهى رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة، فان المعتزلة يقرب منهاجهم من مناهج الفلاسفة الا فى هذا الأمر الواحد، وهو ان المعتزلى لا يجوز الكذب على الرسول ﷺ بمثل هذا العذر، بل يأول الظاهر مهما ظهر له بالبرهان خلافه، والفلسفى لا يقتصر على مجاوزته للظاهر على ما يقبل التأويل على قرب أو على بعد.

وأما الزندقة المطلقة فهو ان تنكر أصل المعاد عقليًا وحسيا وتنكر الصانع للعالم أصلاً ورأسًا.

وأما اثبات المعاد بنوع عقلى مع نفى الآلام واللذات الحسية واثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل العلوم فهى زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الانبياء، وظاهرُ ظنى ـ والعلم عند الله ـ ان هؤلاء هم المرادون بقوله ﷺ: «ستفترق أمتى بضعًا وسبعين فرقة، كلهم فى الجنة الا الزنادقة» وهى فرقة، هذا لفظ الحديث فى بعض الروايات، وظاهر الحديث يدل على انه اراد به الزنادقة من امته، اذ قال: «ستفترق أمتى» ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته، والذين ينكرون اصل المعاد وأصل الصانع فليسوا معترفين بنبوته اذ

يزعمون ان المـوت عدم محض، وان العالم لم يزل كذلك موجـوداً بنفسه من غـير صـانع، ولا يؤمنون بالله ولا اليوم الآخـر، وينسبـون الأنبيـاء إلى التلبيس، فلا يمكن نسبتهم الى الامـة، فإذاً لا معنى لزندقة هذه الامة الا ما ذكرناه.

فصل

اعلم ان شرح ما يُكفَّر به وما لا يُكفَّر به يستدعى تفصيلا طويلا يفتقر الى ذكر كل المقالات والمذاهب، وذكر شبهة كل واحد ودليله ووجه بعده عن الظاهر ووجه تأويله، وذلك لا يحويه مجلدات ولا تتسع لشرح ذلك اوقاتى، فاقنع الان بوصية وقانون:

اما الوصية فان تكف لسانك عن اهل القبلة ما امكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله، غير مناقضين لها، والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر او غير عذر، فان التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه.

وأما القانون فهو ان تعلم ان النظريات قسمان: قسم يتعلق باصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع، واصول الايمان ثلاثة: الايمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر، وما عداه فروع، واعلم انه لا تكفير فى الفروع اصلا إلا فى مسألة واحدة وهى ان ينكر اصلا دينيّا علم من الرسول ﷺ بالتواتر، لكن فى بعضها تخطئة كما فى الفقهيات، وفى بعضها تبديع، كالخطأ المتعلق بالامامة واحوال الصحابة.

واعلم ان الخطأ فى اصل الامامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيءٌ منه تكفيراً، فقد انكر ابن كيسان[1] اصل وجوب الامامة، ولا

(١) هو صاحب التصانيف فى القرءات والغريب والنحو، وكان أبو بكر بن مجاهد يعظمه ويقول هو الحى من الشيخين، يعنى ثعلبًا والمبرد.
توفى، رحمه الله، فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين .اهـ. شذرات الذهب لابى الفلاح.

يلزم تكفيره، ولا يلتفت الى قوم يعظمون امر الامامة ويجعلون الايمان بالامام مقرونًا بالايمان بالله وبرسوله، ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم فى الامامة، فكل ذلك اسراف، اذ ليس فى واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ اصلا.

ومهما وُجد التكذيب وجب التكفير وان كان فى الفروع.

فلو قال قائل مثلاً: البيت الذى بمكة ليس الكعبة التى امر الله تعالى بحجها، فهذا كفر، اذ قد ثبت تواتراً عن رسول الله ﷺ خلافُه، ولو انكر شهادة الرسول لذلك البيت بانه الكعبة لم ينفعه انكاره، بل يعلم قطعًا انه معاند فى انكاره الا ان يكون قريب عهد بالاسلام ولم يتواتر عنده ذلك، وكذلك من نسب عائشة رضي الله عنها الى الفاحشة، وقد نزل القرآن ببراءتها فهو كافر، لان هذا وامثاله لا يمكن الا بتكذيب الرسول او انكار التواتر، والتواتر ينكره الانسان بلسانه ولا يمكنه ان يجهله بقلبه، نعم لو انكر ما ثبت باخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر، ولو انكر ما ثبت بالاجماع فهذا فيه نظر، لان معرفة كون الاجماع حجة قاطعة فيه غموض يعرفه المحصلون لعلم أصول الفقه، وانكر النظَّام[1] كون الاجماع حجة اصلا، فصار كون الاجماع حجة مختلف فيه.

(١) هو ابراهيم بن سيار بن هانى البصرى المعروف بالنظام، ويكنى أبا اسحاق، شيخ من كبار المعتزلة وأئمتهم، متقدم فى العلوم، شديد الغوص على المعانى، اداه الى المذاهب التى استبشعت منه تدقيقه وتغلغله لانه اطلع على كثير من كتب الفلاسفة ومال فى كلامه إلى الطبيعيين منهم والالهيين، فاستنبط من كلامهم رسائل ومسائل وخلطها بكلام المعتزلة، وانفرد بها عنهم، مثل قوله ان الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصى خلافًا لاصحابه، لانهم قضوا بانه قادر عليها لكنه لا يفعلها، =

فهذا حكم الفروع.

واما الاصـول الثلاثة وكل ما لم يحـتمل التأويل فى نفـسه وتواتر نقله، ولم يتصور ان يقوم برهان على خـلافه، فمخالفته تكذيب مـحض ومثاله ما ذكرناه من حـشر الاجساد والجنة والنار، واحـاطة علم الله تعالى بتفـاصيل الامور وما يتطرق إليه احـتمال التأويل، ولو بالمجاز البعـيد، فننظر فيه إلى البـرهان، فان كـان قاطعًـا وجب القـول به، ولكن ان كان فى اظهـاره مع العوام ضرر لقصور فهمهـم، فاظهاره بدعة وان لم يكن البرهان قطعيًا لكن يفيد ظنًا غالبًا، وكان مع ذلك لا يعلم ضرره فى الدين كنفى المعتزلىّ الرؤية عن الله تعالى، فهذه بدعة وليس بكفر.

وأما ما يظهر له ضـرر فيقع فى محل الاجتهاد والنظر فيـحتمل أن يكفَّر

= وله غير ذلك مما انتقد عليه، وانما عدت سقطاته لكثرة اصابته، وكان من صغره يتوقد ذكاء ويتدفق فصاحة، وله مع الخليل بن أحمد وغيره نوادر.

اخذ الكلام عن ابى الهـذيل العلاف الى ان برع وظهر فى ايام المـعتصم، وتبـعه خلق كثيـر، وناظر استاذه ابا الهذيل وظهـر عليه مراراً، وقيل له: اتناظر ابـا الهذيل؟ قال: نعم، واطرح له رخا من عقلى.

توفى سنة احدى وعشـرين ومائتين وله من العمر ست وثلاثون سنة، وله كلام حسن وشعر رقيق، ومن كـلامه: العلم شىء لا يعطيك بعضه حتى تعطيـه كلك فاذا اعطيته كلك، فانت من اعطائه لك البعض على خطر، ومن شعره:

اريد الـفـراق واشـتـاقـكم
كـأنـا افـتـرقنا ولم نفـتـرق
واسـتـغنم الوصل كى اشـتـفى
وهل يشـتـفى ابداً من عـشق

وعنه اخذ الجاحظ واترابه.

ومن اراد التطويل فليرجع لشرح رسالة ابن زيدون.

ويحتمل أن لا يكفر، ومن جنس ذلك ما يـدعيه بعض من يدعى التصوف انه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسـقطت عنه الصلاة وحل له شرب الخمر والمعاصى واكل مال السلطان، فهذا ممن لا شك فى وجوب قتله، وان كان فى الحكم بخلوده فى النار نظر، وقتلُ مثل هذا افضل من قتل مائة كافر، اذ ضرره فى الدين اعظم، وينفتح به باب من الاباحة لا ينسدّ، وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالاباحة مطلقًا، فانه يمنع عن الاصغاء إليه لظهور كفره، وأما هذا فانـه يهدم الشرع من الـشرع، ويزعم انه لم يرتكب فـيه الا تخـصيص عمـوم، اذ خصص عمـوم التكليفـات بمن ليس له مثل درجـته فى الدين، وربما يزعم انه يلابس ويقـارف المعاصى بظاهره، وهو ببـاطنه بريءٌ عنها، ويتداعى هذا الى أن يدَّعى كل فاسق مثـل حاله وينحل به عصام الدين، ولا ينبغى ان يظن ان التكفير ونفيه ينبـغى ان يدرك قطعًا فى كل مقام، بل التكفير حكم شرعى يرجع إلى اباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود فى النار، فمأخذه كمأخذ سائر الاحكام الشرعية، فتارة يُدْرَك بيقين وتارة بظن غالب، وتارة يُتَرَدد فيه، ومهما حصل تردد فـالوقف فيه عن التكفير أولى، والمبادرة إلى التكفير انما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل.

ولا بد من التنبيه على قـاعدة أخرى: وهو ان المخالف قـد يخالف نصًا متواترًا ويزعم انه مؤوّل، ولكن ذكر تأويله لا انقداح له اصلا فى اللسان، لا على بعـد ولا على قرب، فذلك كـفر وصـاحبه مكذب، وان كـان يزعم انه مؤوّل.

مثاله ما رأيته فى كلام بعض الباطنية ان الله تعالى واحد بمعنى انه يعطى

الوحدة ويخلقها، وعالمٌ بمعنى انه يعطى العلم لغيره ويخلقه، وموجود بمعنى انه يوجد غيره، واما ان يكون واحداً فى نفسه وموجوداً وعالمًا على معنى اتصافه فلا.

وهذا كفر صراح، لان حمل الوحدة على اتحاد الوحدة ليس من التأويل فى شيءٍ ولا تحتمله لغة العرب اصلا، ولو كان خالق الوحدة يسمى واحداً لخلقه الوحدة لسُمِّيَ ثلاثًا واربعًا لانه خلق الاعداد ايضًا، فأمثله هذه المقالات تكذيبات عبر عنها بالتأويلات.

فصل

قد فهمت من هذه التكفيرات ان النظر فى التكفير يتعلق بأمور:

احدها: ان النص الشرعى الذى عدل به عن ظاهره هل يحتمل التأويل ام لا؟ فان احتمل، فهل هو قريب أم بعيد؟ ومعرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل ليس بالهيِّن، بل لا يستقل به الا الماهر الحاذق فى علم اللغة العارف بأصول اللغة، ثم بعادة العرب فى الاستعمال فى استعاراتها وتجوازاتها ومنهاجها فى ضروب الامثال.

الثانى: فى النص المتروك انه ثبت تواتراً او آحاداً او بالاجماع المجرد، فان ثبت تواتراً فهو على شرط التواتر أم لا، اذ ربما يُظن المستفيض تواتراً، وحدُّ التواتر ما لا يمكن الشك فيه كالعلم بوجود الانبياء ووجود البلاد المشهورة وغيرها، وانه متواتر فى الاعصار كلها عصراً بعد عصر إلى زمان النبوة، فهل يتصور ان يكون قد نقص عدد بالتواتر فى عصر من الاعصار، وشرطُ التواتر أن لا يحتمل ذلك كما فى القرآن، أما فى غير القرآن فيغمض مدرك ذلك جداً، ولا يستقل بادراكه الا الباحثون عن كتب التواريخ واحوال القرون الماضية وكتب الاحاديث واحوال الرجال وأغراضهم فى نقل المقالات، اذ قد يوجد عدد التواتر فى كل عصر، ولا يحصل به العلم، اذ كان يتصور ان يكون للجمع الكثير رابطة فى التوافق لا سيما بعد وقوع التعصب بين ارباب المذاهب، ولذلك ترى الروافض يدَّعون النص على علىٍّ بن ابى طالب رضي الله عنه فى الامامة لتواتره عندهم، وتواترَ عند

خصومـهم فى اشياء كـثيرة خلافُ مـا تواتر عندهم، لشدة توافق الروافض على اقامة اكاذيبهم واتباعها.

وأما ما يستند إلى الاجماع فـدرك ذلك من اغمض الاشياء، اذ شرطه أن يجتمعَ اهل الحل والعقد فى صعيد واحد فـيتفقوا على امر واحد اتفاقًا بلفظ صريح، ثم يستمروا عليه مرة عند قوم، وإلى تمام انقراض العصر عند قوم، أو يكاتبهم امام فى اقطار الارض فيأخذ فـتاويهم فى زمان واحد بحيث تتفق اقوالهم اتفاقًا صريحًا حـتى يمتنع الرجوع عنه والخلاف بعده، ثم النظر فى ان من خـالف بعـده هل يكفـر؟ لان من الناس من قـال اذا جـاز فى ذلك الوقت أن يختلفوا فيحمل توافـقهم على اتفاق ولا يمتنع على واحد منهم أن يرجع بعد ذلك، وهذا غامض ايضًا.

الثالث: النظر فى أن صاحب المقال هل تواتر عنده الخبر، او هل بلغه الاجمـاع؟ اذ من يولد لا تكون الامـور عنده متـواترة ولا مواضع الاجـماع عنده متميزة عـن مواضع الخلاف وانما يدرك ذلك شيئًا فشـيئًا، وانما يعرف ذلك من مطالعـة الكتب المصنفة فى الاخـتلاف والاجمـاع للسلف، ثم لا يحصل الـعلم فى ذلك بمطالعة تصنيف ولا تصـنيفين، اذ لا يحـصل تواتر الاجماع به.

وقد صنف ابو بكر الفارسى[1]، رحمه اللهكتابًا فى مسائل الاجماع وأُنكر عليه كثيرٌ منه، وخولف فى بعض تلك المسائل.

---

(١) اسمه محمد بن احمد بن على بن شاهويه الفارسى الفقيه القاضى، ابو بكر البيضاوى، كان امـامًا جليلاً، له الـرتبة الرفيـعة فى الفقـه، وله معرفـة بالادب، وصنف فى كل منهما، وكان يعرف بالشافعى، له من التآليف التبصرة فى الفقه، وله عليها شرحان: =

فإذاً من خالف الاجماع ولم يثبت عنده بعد فهو جاهل مخطئ وليس بمكذب، فلا يمكن تكفيره. والاستقلال بمعرفة التحقيق فى هذا ليس بيسير.

الرابع: النظر فى دليله الباعث له على مخالفة الظاهر، أهو على شرط البرهان أم لا؟ ومعرفة شرط البرهان لا يمكن شرحها الا فى مجلدات، وما ذكرنا فى كتاب (القسطاس المستقيم) وكتاب (محك النظر) انموذجٌ منه. وتكلُّ قريحة اكثر فقهاء الزمان عن قص شروط البرهان على الاستيفاء، ولا بد من معرفة ذلك، فان البرهان اذا كان قاطعًا رخص فى التأويل، وان كان بعيداً فاذا لم يكن قاطعًا لم يرخص الا فى تأويل قريب سابق إلى الفهم.

الخامس: فى ان ذكر تلك المقالة هل يعظم ضررها فى الدين أم لا؟ فان ما لا يعظم ضرره فى الدين فالامر فيه اسهل وان كان القول شنيعًا وظاهرَ البطلان كقول الامامية المنتظرة ان الامام مختفٍ فى سرداب، فانه ينتظر خروجه، فانه قول كاذب ظاهر البطلان شنيع جدّا، ولكن لا ضرر فيه

= احدهما تعليل مسائل التبصرة، والثانى التذكرة شرح التبصرة، ألفه بأربعة اشهر سنة احدى وعشرين وثلاثمائة، وله كتاب الارشاد على كفاية الصيمرى.

ذكره الحاكم ابو عبد الله فى تاريخ نيسابور، وقال: اقام بنيسابور زمانًا ثم خرج إلى بخارى، ثم انصرف إلى نيسابور، ورجع إلى بلاد فارس فولى القضاء بها، ثم رجع إلى نيسابور، وحدث بها.

وتوفى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بنيسابور، رحمه الله.

وله فى المذهب وجوه بعيدة تفرد بها ولم نرها منقولة عن غيره، ولا اعلم عمن اخذ الفقه .اهـ. باختصار من الطبقات الكبرى لتاج الدين السبكى، وابن خلكان.

على الدين، انما الضرر على الاحمق المعتقد لذلك، اذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الامام حتى يدخل فيرجع إلى بيته خاسئًا.

وهذا مثال، والمقصود انه لا ينبغي ان يكفر بكل هذيان، وان كان ظاهر البطلان، فاذا فهمت ان النظر في التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التي لا يستقل بآحادها المبرزون علمت ان المبادر إلى تكفير من يخالف الاشعري او غيره جاهل مجازف، وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم، وفي أي ربع من ارباع الفقه يصادف هذه العلوم، فاذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه يخوض في التكفير والتضليل فاعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك، فان التحدي بالعلوم غريزة في الطبع لا يصبر عنه الجهال، ولأجله كثر الخلاف بين الناس، ولو يُنكتُ من الايدي مَنْ لا يدري لقل الخلاف بين الخلق.

فصل

من أشد الناس غلوّا واسرافًا طائفة من المتكلمين كفَّروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التى حررناها فهو كافر، فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً وجعلوا الجنة وقفًا على شِرْذمة يسيرة من المتكلمين ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانيًا، اذ ظهر لهم فى عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضي الله عنهم حكمهم باسلام طوائف من اجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه ومن ظن ان مدرك الايمان الكلامُ والادلة المجردة والتقسيمات المرتبة فقد ابدع حدّ الابداع، بل الايمانُ نور يقذفه الله فى قلوب عبيده عطية وهدية من عنده تارة ببينة من الباطن لا يمكنه التغيير عنها وتارة بسبب رؤيا فى المنام وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته وتارة بقرينة حال، فقد جاء اعرابى إلى النبى ﷺ جاحدًا به منكرًا فلما وقع بصره على طلعته البهية، زادها الله شرفًا وكرامة، فرآها يتلألأ منها انوار النبوة قال: والله ما هذا بوجه كذاب، وسأله أن يعرض عليه الاسلام فأسلم، وجآء آخر إليه ﷺ وقال انشدك الله آلله بعثك نبيًا؟ فقال ﷺ: «إى والله الله بعثنى نبيًا» فصدقه بيمينه وأسلم.

وهذا وامثاله اكثر من ان يحصى، ولم يشتغل واحد منهم بالكلام وتعليم الادلة، بل كان يبدو نور الايمان بمثل هذه القرائن فى قلوبهم لمعة بيضاء،

ثم لا تزال تزداد اشراقًا بمشاهدة تلك الاحوال العظيمة وتلاوة القرآن وتصفية القلوب.

فليت شعرى متى نقل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضي الله عنهم احضار اعرابى اسلم وقوله له: الدليل على ان العالمَ حادث انه لا يخلو عن الاعراض وما لا يخلو عن الحوادث حادث، وان الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة زائدة عن الذات، لا هى هو ولا هى غيره، إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين.

ولست أقول: لم تجر هذه الالفاظ ولم يجر أيضًا ما معناه معنى هذه الالفاظ بل كان لا تنكشف ملحمةٌ الا عن جماعة من الاجلاف يُسلِمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الاسارى يسلمون واحدًا واحدًا بعد طول الزمان او على القرب، وكانوا اذا نطقوا بكلمة الشهادة عُلِّموا الصلاة والزكاة، ورُدوا الى صناعتهم من رعاية الغنم وغيرها.

نعم لست انكر انه يجوز ان يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد اسباب الايمان فى حق بعض الناس، ولكن ليس ذلك بمقصور عليه، وهو أيضًا نادر، بل الانفع الكلام الجارى فى معرض الوعظ، كما يشتمل عليه القرآن.

فاما الكلام المحرر على رسم المتكلمين فانه يشعر نفوس المستمعين بان فيه صنعة جدل ليعجز عنه العامى، لا لكونه حقًا فى نفسه، وربما يكون ذلك سببًا لرسوخ العناد فى قلبه، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة الى غيره، ولا عن

مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة، ولا على العكس، وتجرى هذه الانتقالات باسباب اخرَ، حتى فى القتال بالسيف، ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات، بل شددوا القول على من يخوض فى الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال.

واذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرَّحنا بان الخوض فى الكلام حرام لكثرة الآفة فيه الا لأحد شخصين: رجل وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام قريبٍ وَعظيٍّ، ولا بخبر نقليّ عن رسول، فيجوز ان يكون القول المرتب الكلامى رافعًا شبهته ودواءً له فى مرضه، فيستعمل معه ذلك ويُحرس عنه سمعُ الصحيح الذى ليس به ذلك المرض، فانه يوشك أن يحرك فى نفسه اشكالا ويثير له شبهة تمرضه وتستنزله عن اعتقاده المجزوم الصحيح.

والثانى شخص كامل العقل راسخ القدم فى الدين ثابت الايمان بانوار اليقين يريد أن يحصل هذه الصنعة ليداوى بها مريضًا إذا وقعت له شبهة وليفحم بها مبتدعًا اذا نبغ، وليحرس به معتقده اذا قصد مبتدع اغواءَه، فتعلم ذلك بهذا العزم كان من فروض الكفايات، وتعلمُ قدر ما يزيل به الشك ويدرأ الشبهة فى حق المشكل فرضُ عين، اذا لم يمكن اعادة اعتقاده المجزوم بطريق آخر سواه.

والحق الصريح ان كل من اعتقد ما جاء به الرسول ﷺ واشتمل عليه القرآن اعتقادًا جزمًا فهو مؤمن وان لم يعرف أدلته، بل الايمان المستفاد من الدليل الكلامى ضعيف جدًا مشرف على التزاول بكل شبهة، بل الايمان

الراسخ ايمـان العوام الحـاصل فى قلوبهم فى الصـبى بتـواتر السمـاع، أو الحاصل بعد البلوغ بقرائن احوال لا يمكن التغيير عنها، وتمام تأكده بلزومه العبادة والذكر، فان من تـمادت به العبادة إلى حقيقة التقـوى وتطهير الباطن عن كدورات الدنيـا وملازمـة ذكر الله تعالى دائمًـا تجلت له أنوار المعـرفة وصارت الامور التى كان قد أخذها تقليداً عنده كالمعاينة والمشاهدة، وذلك حقيـقة المعرفـة التى لا تحصل إلا بعد انحـلال عقدة الاعتقـادات وانشراح الصدر بنور الله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشـرح صدره للاسلام فهو على نور من ربه كما سئل رسول الله ﷺ عن مـعنى شرح الصدر فقال: «نور يقذفُ فى قلب المؤمن» فقيل: وما علامته؟ قال: «التجافى عن دار الغرور، والانابة الى دار الخلود».

فبهـذا يعلم ان المتكلم المقـبل على الدنيا المتهـالك عليها غـير مدرك حقيقة المعرفة، ولو أدركها لتجافى عن دار الغرور قطعًا.

فصل

لعلك تقول: انت تأخذ التكفير من التكذيب للنصوص الشرعية. والشارعُ صلوات الله عليه هو الذى ضيق الرحمة على الخلق دون المتكلم اذ قال ﷺ: «يقول الله تعالى لآدم عليه السلام يوم القيامة: يا آدم ابعث من ذريتك بُعثَ النار، فيقول: يا رب، من كم؟ فيقول: من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعين» وقال ﷺ: «ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقةً الناجيةُ منها واحدة»(١).

الجواب: ان الحديث الأول صحيح ولكن ليس المعنى به انهم كفار مخلدون بل انهم يدخلون النار ويُعرَضون عليها ويُتركون فيها بقدر معاصيهم، والمعصوم من المعاصى لا يكون فى الالف الا واحداً، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ثم بعثُ النار عبارة عمَّن استوجب النار بذنوبه ويجوز أن يصرفوا على طريق جهنم بالشفاعة كما وردت به الاخبار وتشهد له الاخبار الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله تعالى، وهى اكثر من ان تحصى.

---

(١) قد مر قوله ﷺ: «ستفترق أمتى بضعًا وسبعين فرقة كلهم فى الجنة الا الزنادقة» وهنا قوله ﷺ: «ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقة الناجية منها واحدة» ولا تنافى بين الحديثين، اذ المقصود من البضع وسبعين فرقة فى الحديث الاول الفرق التى انشعبت من الفرقة الناجية، والمقصود هنا الفرق التى انشعبت من الزنادقة فهما كالمستثنى المتصل من المستثنى، والواحدة الناجية وما انشعب منها هى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأتباعه.

فمنها: ما روى عن عائشة رضي الله عنها انها قالت: فقدتُ النبى ﷺ ذات ليلة فابتغيته فاذا هو فى مشربة يصلى، فرأيت على رأسه انواراً ثلاثة، فلما قضى صلاته قال: «مهيم، من هذه؟» قلت: أنا عائشة يا رسول الله، قال: «أرأيت الانوار الثلاثة؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «انّ آتٍ اتانى من ربى فبشرنى ان الله تعالى يُدخل الجنة من أمتى سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب، ثم اتانى فى النور الثانى آت من ربى فبشرنى ان الله تعالى يُدخل الجنة من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفًا سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب، ثم اتانى فى النور الثالث آتٍ من ربى فبشرنى ان الله تعالى يدخل الجنة من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفا المضاعفة سبعين الفًا بغير حساب ولا عذاب» فقلت: يا رسول الله، لا تبلغ أمتك هذا، قال: «يكملون لكم من الأعراب ممن لا يصوم ولا يصلى».

فهذا وامثاله من الاخبار الدالة على سعة رحمة الله تعالى كثير. فهذا فى أمة محمد ﷺ خاصةً.

وأنا اقول: ان الرحمة تشمل كثيراً من الامم السالفة، وان كان اكثرهم يُعرضون على النار، إما عرضة خفيفة حتى فى لحظة او فى ساعة وإما فى مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار، بل اقول: ان اكثر نصارى الروم والترك فى هذا الزمان تشملهم الرحمة، ان شاء الله تعالى، اعنى الذين هم فى اقاصى الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة، فانهم ثلاثة اصناف: صنف لم يبلغهم اسم محمد ﷺ اصلاً، فهم معذورون، وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الاسلام والمخالطون

لهم وهم الكفار الملحدون، وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعته وصفته بل سمعوا أيضًا منذ الصبا ان كذابًا ملبسًا اسمه محمد ادّعى النبوة كما سمع صبياننا ان كذابًا يقال له المقفع بعثه الله تحدّى بالنبوة كاذبًا، فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الأول، فانهم مع انهم لم يسمعوا اسمه سمعوا ضدَّ أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب

وأما الحديث الآخر: وهو قوله: «الناجية منها واحدة» فالرواية مختلفة فيه، فقد روى الهالكة منها واحدة، ولكن الاشهر تلك الرواية، ومعنى الناجية هى التى لا تعرض على النار ولا تحتاج إلى الشفاعة، بل الذى تتعلق به الزبانية لتجرَّه إلى النار فليس بناج على الاطلاق، وان انتُزع بالشفاعة عن مخاليبهم، وفى رواية: «كلهم فى الجنة الا الزنادقة» وهى فرقة، ويمكن أن تكون الروايات كلها صحيحة فتكون الهالكة واحدة وهى التى تخلد فى النار ويكون الهالك عبارة عمن وقع اليأس عن صلاحه، لان الهالك لا يُرجى له بعد الهلاك خير، وتكون الناجية واحدة، وهى التى تدخل الجنة بغير حساب ولا شفاعة، لان من نوقش الحساب فقد عُذّب، فليس بناج إذًا، ومن عُرّض للشفاعة فقد عرّض للمذلة فليس بناجٍ أيضًا على الاطلاق، وهذان طريقان وهما عبارتان عن شر الخلق وخيره. وباقى الفرق كلهم بين هاتين الدرجتين، فمنهم من يعذب بالحساب فقط، ومنهم ومن يقرب من النار ثم يصرف بالشفاعة، ومنهم من يدخل النار ثم يخرج على قدر خطاياهم فى عقائدهم وبدعتهم، وعلى كثرة معاصيهم وقلتها. فأما

الهالكة المخلدة فى النار من هذه الامة فهى فرقة واحدة وهى التى كذبت وجوّزت الكذب على رسول الله ﷺ بالمصلحة.

وأما من سائر الامم فمن كذبه بعد ما قرع سمعه على التواتر خروجه وصفته ومعجزته الخارقة للعادة كشق القمر وتسبيح الحصى ونبع الماء بين اصابعه والقرآن المعجز الذى تحدى به اهل الفصاحة وعجزوا عنه، فاذا قرع ذلك سمعه فاعرض عنه وتولى ولم ينظر فيه ولم يتأمل ولم يبادر إلى التصديق فهذا هو الجاحد الكاذب، وهو الكافر، ولا يدخل فى هذا اكثر الروم والترك الذين بعدت بلادهم عن بلاد المسلمين.

بل اقول من قرع سمعه هذا فلا بد ان تنبعث به داعية الطلب ليستبين حقيقة الامر ان كان من اهل الدين، ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فان لم تنبعث هذه الداعية فذلك لركونه إلى الدنيا وخلوه عن الخوف وخطر امر الدين، وذلك كفر وان انبعثت الداعية فقصر فى الطلب فهو أيضًا كفر بل ذو الايمان بالله واليوم الآخر من اهل كل ملة لا يمكنه ان يفتر عن الطلب بعد الظهور المخايل بالاسباب الخارقة للعادة، فان اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصّر فادركه الموت قبل تمام التحقيق فهو ايضًا مغفور له، ثم له الرحمة الواسعة.

فاستوسعْ رحمة الله تعالى ولا تزن الامور الالهية بالموازين المختصرة الرسمية.

واعلم أن الآخرة قريب من الدنيا، فـ ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فكما ان اكثر اهل الدنيا فى نعمة وسلامة او فى حالة يغبطها، اذ لو

خُير بينها وبين الاماتة والاعدام مثلاً لاختارها، وانما المعذبُ الذى يتمنى الموت نادرٌ، فكذلك المخلدون فى النار بالاضافة الى الناجين والمخرجين منها فى الآخرة نادر، فان صفة الرحمة لا تتغير باختلاف احوالنا، وانما الدنيا والآخرة عبارتان عن اختلاف احوالك، ولولا هذا لما كان لقوله ﷺ معنًى حيث قال: «اول ما خط الله فى الكتاب الأول انا الله، لا إله إلا أنا، سبقت رحمتى غضبى، فمن شهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فله الجنة».

واعلم ان اهل البصائر قد انكشف لهم سبق الرحمة وشمولها باسباب ومكاشفات سوى ما عندهم من الاخبار والآثار ولكن ذلك يطول، فأبشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة ان جمعت بين الايمان والعمل الصالح، وبالهلاك المطلق ان خلوت عنهما جميعًا، وان كنت صاحب يقين فى اصل التصديق وصاحب خطأ فى بعض التأويل، او صاحب شك فيهما، او صاحب خلط فى الاعمال فلا تطمع فى النجاة المطلقة.

واعلم انك بين ان تعذب مدة ثم تخلَّى، وبين ان يشفع فيك من تيقنت صدقه فى جميع ما جاء به، او غيره، فاجتهد ان يغنيك الله بفضله عن شفاعة الشفعاء، فان الامر فى ذلك مخطر.

فصل

قد ظـن بعض الناس ان مأخـذ التكفيـر من العقل لا من الـشرع، وان الجاهل بالله كافر والعارف به مؤمن، فيقال له: الحكم باباحة الدم والخلود فى النار حكم شرعى لا معنى له قبل ورود الشـرع، وان اراد به ان المفهوم من الشـارع ان الجاهل بالله هـو الكافر فـهذا لا يـمكن حصـره فيـه، لان الجاهل بالرسـول وبالآخرة أيضًا كافر، ثم ان خـصص ذلك بالجهل بذات الله تعالى بجحد وجوده او وحدانيتـه، ولم يطّرده فى الصفات فربما سوعد عليه وان جعـل المخطئ فى الصفات أيضًـا جاهلاً أو كافراً لزمه تـكفير من نفى صفة البقاء وصفة القدم، ومن نفى الكلام وصفا زائداً على العلم، ومن نفى السـمع والبـصر زائداً عـلى العلم، ومن نفى جـواز الرؤية، ومن اثبت الجهة واثبت ارادة حادثة لا فى ذاته ولا فى محل، وتكفير المخالفين فيه.

وبالجملة يلزم التكـفير فى كل مسـألة تتعلق بصفـات الله تعالى، وذلك حكم لا مسـتند له، وان خصص ببعض الصفـات دون بعض لم يجد لذلك فـصلا ومـردّا، ولا وجه له الا الضـبط بالتكذيب ليـعم المكذب بالرسـول وبالمعـاد، ويخرج منه المؤوّل، ثم لا يبعـد ان يقع الشك والنظر فى بعض المسائل من جـملة التأويل، او التكذيب، حتى يكون التأويل بعـيداً ويقضى فيه بالظن وموجب الاجتهاد، فقد عرفت ان هذه مسألة اجتهاد.

فصل

من الناس من قال: انـما اكفـر من يكفرنى من الفـرق، ومن لا يكفرنى فلا، وهذا لا مأخذ له، فان قال قائل: علىٌّ رضي الله عنه أولى بالامامة، إذاً لم يكن كفراً، فبأن يخطئ صاحبه ونظن ان المخـالف فيه كافر لا يصير كافراً، وانما هو خطأ فى مسألة شرعية، وكـذلك الحنبلى اذا لم يكفر باثبات الجهة فلم يكفر بان يغلط او يظن ان نافى الجهة مكذب وليس بمتأوّل.

واما قول رسول الله ﷺ: «اذا قذف احد المسلمين صاحبه بالكفر فقد باء به احدهما» مـعناه ان يكفره مع معرفـته بما له، فمن عـرف من غيره انه مصدق لرسول الله ﷺ ثم يكفره فيكون المكفر كافراً.

فأمـا ان كفره لظـنه انه كذب الرسول فـهذا غلط منه فى حـال شخص واحد، اذ قد يظن به انه كافر مكذب وليس كذلك، وهذا لا يكفر كفراً.

فقد افدناك بهذه الترديدات التنبيه على اعظم الغور فى هذه القاعدة وعلى القانون الذى ينبغى ان يتبع فيه فاقنع به.. والسلام.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
تقديم	٥
فصل فى حد الكفر	٩
فصل فى معرفة حد الكفر	١٥
فصل فى تكفير الطوائف بعضها البعض	٢٤
فصل فى درجات التأويلات	٢٧
فصل فى التصديق والتكذيب	٣١
قانون التأويل	٣٤
فصل فى مبادرة التأويل بغلبات الظنون	٣٧
فصل فى شرح ما يكفر وما لا يكفر	٤٢
فصل فى أمور تتعلق بالنظر فى التكفير	٤٧
فصل فى غلو وإسراف طائفة من المتكلمين	٥١
فصل فى تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة عن رسول الله ﷺ	٥٥
فصل فى ظن خاطئ	٦٠
فصل فى الرد على بعض الاقوال الفاسدة	٦١
الفهرسة	٦٣